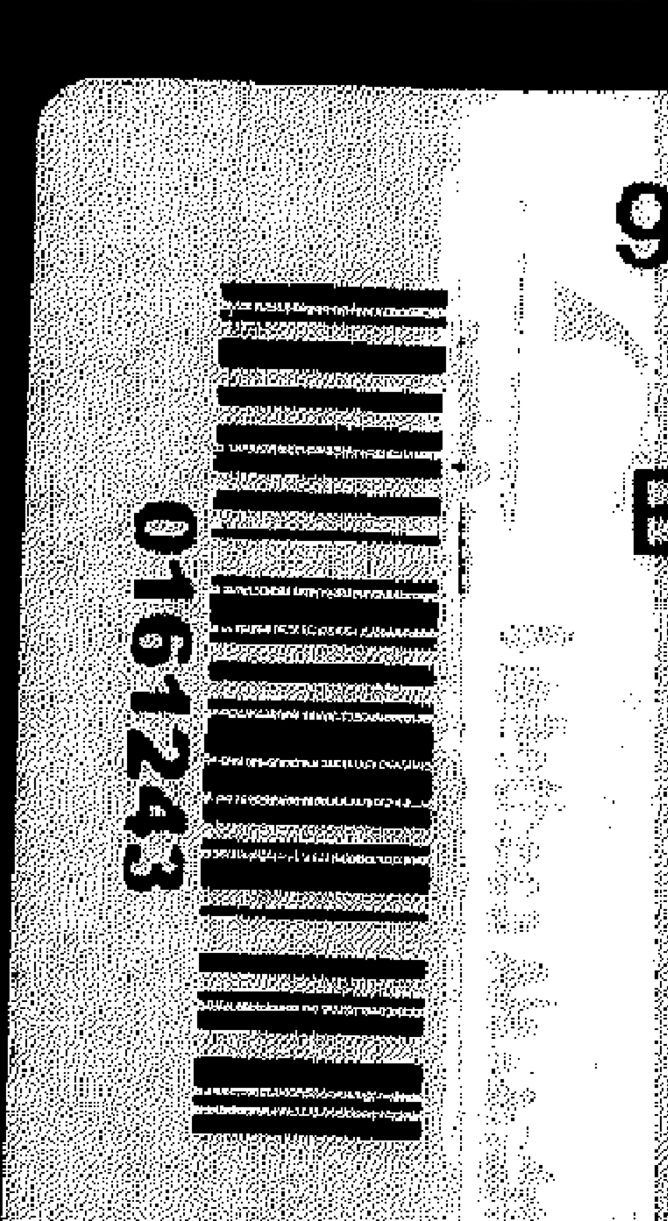
أحداث ومشاهير عالمية

بسمارك



الدكتور علي شعيب

دار الفكر اللبناني

أحداث ومشاهير عالمية



الدكتور علي شلق

دار الفكر اللبناني
بيروت



كورنيش المزرعة - تجاه غلوب بنك
هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٣٣٩٢
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس: DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٢

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٣٧ - ٨٣٧٤٤٩ - ٨٣٧٦٣٧ - ١٦٠٧٤٣

مقدمة

يتناول هذا البحث سيرة رجل قدر له أن يلعب بسياسة ألمانيا وأوروبا مدة طويلة من الزمن وهو أتو فون بسمارك . كانت سياسة (الحديد والدم) التي أصبحت شهيرة في كل مكان هي السياسة التي كرّس بسمارك لها جهده وحنكته . كان يتبرم من سلطة المجالس النيابية ، ويسعى إلى حصر دورها في نطاق ضيق . ومع أنه كان يمثل العصر البائد ، إلاّ أنه جعل الحاضر يلين بين يديه ويتمشى طوع أمره إلى أن صب ألمانيا في قالبها الجديد ، وصاغ قالباً آخر لأوروبا بأسرها في فترة النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وقد جعل من ألمانيا المعروفة بفلاسفتها وعلمائها ألمانيا أخرى تعتمد على الدم والحديد والمهارة الحربية . وجعلها تبسط سيطرتها على شؤون أوروبا . وقد سحرت سياسته الرامية إلى جعل ألمانيا القوة الكبرى في أوروبا والعالم ، الألمان المتطلعين إلى العزة والكرامة القومية ، وجعلتهم يتحملون ما يفرضه عليهم من قيود .

وعندما تسلم بسمارك مركز المستشارية كانت له آراء

واضحة ، فعمل على تحقيقها بعزم وثبات ولقي نجاحاً باهراً . كان هدفه إحلال ألمانيا ، وعن طريقها بروسيا ، في مكان الصدارة في القارة الأوروبية . إن الدور الذي لعبه بسمارك في الإيقاع بين الدول واصطيادها منفردة ليعطينا صورة أخاذة عن الأسلوب القديم في السياسة الدولية .

فلقد اختلف الباحثون في تحديد بداية القرن العشرين ؛ فالبعض اعتقد أنه يبدأ عام ١٨٩٠ ، إذ في ذاك اليوم شهدت أوروبا أحداثاً هامةً تركت آثارها في مجرى العلاقات الدولية . ففي هذا اليوم شهدت أوروبا أفول نجم من نجومها ونعني به بسمارك المستشار الألماني الذي تولى السلطة عام ١٨٦٢ . فالتغير في السلطة أدى إلى تغير في السياسة الخارجية الألمانية .

وبعد وفاة بسمارك بقي شبحه مدة كبيرة مخيماً على ألمانيا وحافزاً لمن يخلفه . غير أن الخلف لم يصلوا إلى علو الهمة التي كانت للسلف .

الفصـــل الأول

مداخل ومخارج في صعود بسمارك

كان النظام الذي وضعه نابليون لحكم ألمانيا حدثاً قاسياً في تـاريخ الأمة الألمانيـة ، لكنه حمـل في ثنايـاه كثيـراً من الإيجابية إذ ساعد على إشاعة كثير من الأفكار المفيدة الطيبة . فإن الجماعات التي سادها دهراً طويلاً روح القناعة والاكتفـاء الـذاتي ، أخـذت بفعـل تنبيـه تلك الأفكـــار ، تنشط للقيـام بالإصـلاحات النافعة . وكان بين هذه الإصلاحات تبسيط عظيم بجغرافية ألمـانيا السيـاسية المعقـدة : وهو تبسيط تـرتب عليه القضـاء على مائـة وعشرين ولايـة صغيرة . وقـد وضـع هـذا التقسيم الجـديد لألمـانيـا في بـاريس سنـة ١٨٠٢ ، كنتيجـة للتعـويضات التي كـان على نابليـون أن يقـدمهـا إلى الأمـراء الألمان الذين أكرههم الفتح الفرنسي على التنازل عن أملاكهم على الضفة اليسرى لنهر الراين .

وعنـدمـا تحـول الـرأي العـــام الألمـاني ضـــد الحكم الأجنبي ، كان الرأس المفكر والقلب النابض في ألمـانيا هي بروسيا . ففي تلك المملكة التي ظلت ردحاً طويلاً من الـزمن مغنطيساً يجذب إليه من كل فج الرجال ذوي الكفاية والمقدرة

لخدمتها ، نفذت إلى أعماق نفوس فئة قليلة من الوطنيين المفكرين الشديدي النشاط الكبيري الهمة . وإنه لمن دواعي مجد وفخار (شارنهرشت) وكلاورفتز ـ وشتاين ـ وهاردنبرغ ـ أنهم نظروا إلى المسألة البروسية في واسع معانيها . فرأوا أن بلادهم في حاجة ، لا إلى الإصلاح الحربي وحده ، بل إلى الإحياء الوطني ، واليقظة القومية . وقد كانت نتيجة عملهم بوجه عام أنهم نفخوا في أبناء وطنهم روح العزة القومية ، ومنحوا جيشاً مستذلاً وأمة مستكينة بعض مزايا الحرية المجيدة . ولم يحدث غالباً أن أدرك بمثل الوضوح الذي أدرك به البروسيون وقتئذٍ هذه العظة ، وهي أن أسباب هزيمة منكرة كتلك التي أصيبوا بها ترجع إلى العامل الخلقي الأدبي . وما كان إلاَّ سياسياً كبيراً ضليعاً كشتاين يستطيع أن يفطن إلى أنه يجدر لبعث بروسيا بعثاً حربياً ، منح المدن البروسية قسطاً من الحكم الذاتي ، والعناية بأحوال الفلاحين الاجتماعية . ولا يضيره أو ينقص من مدى بصره [illegible] ، أنه تلقى دروسه هذه من الفرنسيين، الذين كانوا قد حرروا من قبل طبقة الفلاحين.

ولم تنل الحركات الجبارة المتلاطمة للعقل الألماني التي تنتسب إلى هذه الفترة ، والمؤلفات الجليلة العديدة لكثير من المؤلفين الألمان ، تقديراً عاماً إلا بعد أن نشرت مدام دي ستايل سنة ١٨١٠ سفرها المبدع عن ألمانيا . حينئذٍ كشف الناس أن الأمة التي اجتاحت أرضها جيوش نابليون ، وعوملت بالازدراء الذي هو من نصيب الأمم الخاضعة المنحطة

المكانة ، كانت في الواقع ربة كنز من الشعر والنثر المعاصرين ثمين : كنز ذو اتساع وعمق في معانيه ، وذو غنى وابتكار في أشكاله ، وهو يفوق أي عمل حديث وضع في أي بلاد أخرى من بلدان أوروبا . وما وافت سنة ١٨١٥ حتى ألفت ألمانيا نفسها قوة في عالم الأدب والعلم ، حتى وإن لم تصبح وقتئذٍ وحدة سياسية . ولكن القمة الروحية التي وصلت إليها حينذاك ، ومجال التأثير الروحي الذي كانت تتمتع به ، لم تستطع قط أن تستعيدهما بعد ذلك ومن عجب أن الأدب الألملني بلغ ذروته في عصر غلب عليها فيه الضعف والاستكانة والانقسام السياسي ، وحينما كانت الروح الوطنية في أسفل درك . فليس الحكم النابليوني لألمانيا إذن بخال تماماً من الحسنات ، وليس تقدم القومية الألمانية الظافرة محصّناً لها من مواطن المؤاخذة واللوم .

حرب التحرير الألمانية / ظهور الروح القومية :

إن حرب التحرير الألمانية (سنة ١٨١٣) ، بجانب أنها خالدة لتميزها بالقضاء على سلطان نابليون في وسط أوروبا ، فقد بذرت بذور تلك العاطفة القوية للولاء لألمانيا الكبرى ، تلك العاطفة المشبوبة التي حولت السياسة في العالم الحديث . فللمرة الأولى تملكت الشعب الألماني أمنية مشتركة ، وشاع فيه إحساس واحد . فلقد أوذي كل ألماني بوطأة الحصار القاري والتجنيد الإجباري . فصار تحرير الوطن من نير الطغيان الأجنبي الذي لا يطاق، ودرء الخطر الفرنسي

بطريقة ما ، أمنيتين يشترك فيهما القوم على بكرة أبيهم . ولكن التظافر كان بشكل خاص أقوى في شمـال (ألمانيـا) ، حيث تعاون الشعراء والفلاسفة وكتاب النشرات على التبشير بإنجيل أمة ألمانية واحدة .

ومـع ذلك فلم يكن ثمـة إلى ذلك الحين أمـة كهـذه . وإنمـا كان الأمـر مجرد تخمـر ملتهب قوي للشعـور القومي ، يمكن بفعله ومساعدته أن تنجب أمة وتبنى تحت توجه سياسي حازم . ولكن هذا التوجيه لم يبرز إذ ذاك ، ولم تكن ولاية من الولايات الألمانية من القوة والبأس ، بحيث تستطيع بمفـردها أن تقهر نابليون ، وتضم جميع الألمان تحت لوائها .

ويعد المؤرخون البـروسيون مـأساة من مـآسي التاريـخ الإيراني أن العواطف الحرة القومية الجياشة التي أثارتها حرب التحرير تُركت تتبخر وتضيع عبثاً كما تضيع مياه نهر أفريقي في الفيافي والرمال ، وانه برغم الجهود الجبارة ، والمحن القاسية التي مرت بألمانيا في تلك الأيام ، قد خرجت بنظام تعـاهدي وضع على نحو يشل نشاطها ، ويحرمها من أي سلطان فعلي في مجالس أوروبا السياسية .

فقد أزهقت في قسوة آمال خيار الألمـان في أن الجهود الواسعة النطاق التي بذلوها في حـرب التحريـر ، ستسفر عن اتحادهم القومي وقيـام حكومـة دستوريـة في بلادهـم . إذ لم يتكوَّن الاتحاد . وإنما كُوِّن « مجمع » أو « ديت » Dict يضم

تسعاً وثلاثين ولاية ، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها ، وإن تمنح وحدها إجازة وتنفيذ كل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدي . ولم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة في الديت ، لأن دولاً غير ألمانيا كالدانمارك واللوكسمبرغ كان لها كراسي فيه . إذ كان يغلب عليها نظم متشابهة من الاستبداد غير المستنير الذي ينزع إلى التخفي والسرية . ورغم تعهد ملك بروسيا رسمياً بمنح رعاياه نظاماً برلمانياً ، أفلح نبلاء بروسيا الاقطاعيون في منع عقد برلمان في برلين . فكان الأحرار الألمان ـ وهم أقلية على الدوام ـ يحسدون باريس ولندن مناقشاتهما البرلمانية الرائعة ، ويفكرون في تقصير بلادهم وجدبها السياسي ، ويسائلون أنفسهم عما إذا كان الوطن قد كسب شيئاً ذا قيمة من وراء بذل الدماء الغزيرة ، وضياع الأموال والكنوز في الحروب النابليونية .

أما العلة الكبرى لهذه المحنة ، فقد نجمت عن اختلاف الألمان أنفسهم فيما بينهم في رسم خطة إنشائية لمستقبل بلادهم . فكان البعض منهم يصبو إلى قيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا ، والبعض الآخر إلى دولة ألمانية تدين بالولاء للتاج النمساوي ، وآخرون يرومون اتحاداً تعاهدياً تستطيع فيه النمسا وبروسيا والولايات الألمانية الصغرى أن تكون فرقاً متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها . فلاحت ألمانيا للعالم الخارجي كأنها تتحرك وتسير في ضباب فلسفي .

تزعم بسمارك العمل للوحدة الألمانية :

وجد جمهوريـون في ألمانيا وخاصة في الجنوب الغربي منها ، وكانوا جمهوريين نـزقي الـرأي ، يجنحون بطبعهم إلى النضال ، ولكن حزبهم كان أقلية بشكل جلي . فقد كان معظم الألمـان في مطلع سنـة ١٨٤٨ مصلحين ومؤمنـون بـالـوحـدة الألمانية ، إلاّ أنهم كانوا يؤمنون بأن ألمانيا لا تستطيع أن تتحد وفق المبادىء الحرة ، إلا عن طريق برلمان ينظم الأمة الألمانية بأسرها ، وينتخب انتخاباً حراً ويستقل استقلالاً تاماً عن الديت الألماني العقيم الفائدة الذي فرضه على البلاد مؤتمر فينـا الذي أعقب سقوط نابليون عام ١٨١٥ .

تشجع زعماء الألمان الأحرار بعـزل لويس فيليب ، ودعـوا ـ ولكم من غير أن يضمنوا تأييد الأمراء لهم ـ برلمـانـاً تمهيـديـاً لـلاجتماع في فـرانكفـورت لإعـداد العـدة لانتخـاب جمعيـة وطنية ، كان يـرجى أن تخرج من مـداولاتها السلميـة ألمانيـا الجـديدة . والتـأم عقد هـذه الجمعيـة في ١٨ أيـار ١٨٤٨ . وكانت تحوي بعضاً من أكرم الشخصيات ، وأنبل العقول في ألمانيا . وبعد مداولات متشعبة محكمة اتسمت بالجد الكبير، أخرجت دستوراً ديمقراطياً لألمانيا المتحدة : دستوراً كان أبرز وأثمن ظاهرة فيه بنود طويلة من الأحكام المدققة لحماية الحرية الشخصيـة . وكانت هنـاك مشكلة تواجـه أنصار الـوحدة . إذ كانت ألمانيا وقتئذٍ اتحاداً تعاهدياً يتألف من دول ذات سيادة ، تهتم كـل منهـا إلى أقصى حـدود الاهتمـام بـالاحتفـاظ أشـد

المحافظة بحقوقها وامتيازاتها . ولكن لم يكن ممكناً الوصول إلى اتحاد ألماني جديد أعظم تماسكاً وتراصاً من الاتحاد القائم ، إلا إذا قبلت الدول الأعضاء إنقاص سلطاتها المستقلة بعض الانقاص .

وأدرك برلمان فرنكفورت أنه لن يستطيع التقدم في أعماله ، بانتهاجه طريقة المشاورة الإنفرادية مع كل حكومة من الحكومات الثماني والثلاثين التي تؤلف الاتحاد الألماني . كما أدرك أن فرص الاتفاق بعيدة جداً . لهذا السبب فإنه بعد أن قررت الجمعية ـ ولو أن قرارها كان بأغلبية أربعة أصوات فقط ـ إقصاء النمسا من الاتحاد القادم ، عقدت العزم في حكمة على أن تدعو أقوى سيف في ألمانيا إلى نصرتها والدفاع عن قرارها فعرضت تاج الاتحاد على ملك بروسيا فردريك وليم الرابع (١٨٤٠ ـ ١٨٦١) .

بيد أن هذا الملك كان لا يزال أوتقراطياً في دخيلة قلبه ، وكان جيشه لا يزال عظيم الولاء لعرشه ، ولا يخصص نفسه لخدمة سيد سواه ، وكان وجوه دولته لا يزالون غير مقتنعين بأن ثمة أي نفع يمكن أن تجنيه بروسيا من وراء الحركات الديمقراطية . . كما وقف على الدوام بين فردريك وليم والأحرار الألمان حائل منيع من الحقد وعدم الثقة ؛ هو الدم الذي أهرق عند متاريس شوارع برلين المطالبة بالحرية والوحدة .

وحدث أن الملك رفض دعوة برلمان فرنكفورت لتقبل

عرش الامبراطورية وأجاب أن الملك لن يقبل تاجاً غير مرفوع إليه من الأمراء ودستوراً لم تقره حكومات ألمانيا .

وأخـذت الرجعيـة البروسيـة تجمع صفـوفها وعنفهـا . فتمكن الجيش البـروسي من سحق الفتن في سكسونيـا وبادن وهانوفر ، وكسب بالتالي اعتراف جميع الأمراء الألمـان الذين كانوا يهلعون خوفاً من فقدان عروشهم .

ولكن بعد أن هدأت ريـح الثورة ، وجـد ملك بروسيـا نفسه وجهاً لوجه أمـام (شفارتـزنبرغ) ، سيـد دولة نمسـاوية نـاهضة . فقـام صراع مـريـر بين سيـاستي هـذين الحـاكمين المتضاربتين حول زعامة الولايات الألمانية . وأسفرت النهايـة عن هزيمة بروسيا هزيمة سيـاسية بـالغة الإذلال لهـا . وكانت قـوات الدولتين المتنـافستين على شفا الاشتبـاك معـاً . ولكن الحرب تُجنِّبت ، إذ رأى فردريك أن جيشه ليس بكفء لمنازلة خصمه . واضطرت بروسيا لشراء صلح فررٍ في (المتز) ، ٢٥ تشرين الثاني ١٨٥٠ ، بتسليمها الكامل بمطالب النمسا .

وكـان بين المراقبين لهـذه التـطورات شـاب من وجـوه بوميرانا ، عضو في برلمان برلين ، ومن أصحاب الأمـلاك في بروسيا ، ولد في العام الذي وقعت فيه معركة واترلو ١٨١٥ . وقد أبان في هذه الأزمة عن شجاعة في الـرأي ، فصاحـة في اللسان ، وقوة في الإسمان جعلت له سلطة ونفوذاً فاقا كثيراً ما للوزراء عادة منها : هذا هو أوتو فون بسمارك الذي ليس له أن يكون من أعظم الشخصيات في تاريخ بروسيا . ولقد أوتي قوة

بدنية فائقة ، وكان خطيباً لامعاً قوياً ولغوياً ماهراً . ولد مطبوع على أفانين السياسة وحيلها ، وجمع في شخصه جميع المناقب التي يتصف بها السياسي الداهية . وكان يبتغي هو أيضاً قيام اتحاد ألماني . ولكنه لم يكن يرغب في أن يتم ذلك بتضحية الملكية البروسية ، أو التقاليد البروسية . ولقد قال : « إننا نصبو جميعاً إلى أن ينشر النسر البروسي جناحيه كدرع وحاكم من ميونخ إلى دنرسبرغ ، ولكن يجب أن يكون مطلقاً من كل قيد ، غير مشدود إلى (ديت) متحكم جديد ، فإننا بروسيون ، وسنظل بروسيين » .

ولقنته المبادىء المحافظة الموروثة القوية التي يتحلى بها أعيان البروسيين أن مستقبل بلاده سيشكّل ، لا بخطب الساسة الأحرار الذين يقلدون النظم البرلمانية الإنكليزية تقليداً أعمى ، وإنما بالنظام العسكري الصارم . وقد ملأ قلبه فرح طاغ ، وابتهاج شديد ، لفشل برلمانات فرنكفورت ، وإخفاق خطط ملكية في ارفرت . فإنه لم يكن بمقدوره أن يطيق فكرة وجود برلمان يعلو سلطانه سلطان ملك بروسيا ، ومن حقه أن يحرك جندياً من جنود الجيش البروسي أو مدفعاً من مدافعه . ولذا أشار ـ مخالفاً رأي (رادوفتز) كبير وزراء بروسيا ـ بإبرام صلح مع النمسا ، فإنه مهما كان ذلك الصلح مهيناً ومزرياً ، فقد يكون خيراً من هذا الهدف البغيض ، وهو حبس النسر البروسي في قفص عصبة ألمانية .

وباختفاء الزعيم النمساوي مترنيخ وبروز بسمارك في

الميدان السياسي ، تـطورت المنافسـة بين النمسا وبـروسيا ، وهي المنافسة التي ترجع إلى عام ١٧٤٠ حينما سلب فردريك الثاني سيليزيا من ماري تريزا ، والتي تطورت بخطى سـريعة مـدبرة إلى نهـاية عنيفـة في ساحـة (سـادوا) Sadowa سنـة ١٨٦٦ ، حيث هـزم البروسيـون النمساويين ، ودحـر العـالم الجديد العالم القديم ، وبدفعة هائلة فك الريخ الألماني قيوده من سيطرة النمسا القديمة التي لم تتمكن حتى مطرقة نـابليون الجبارة من تحطيمها . وتمكن البروسيـون بأسلحتهم الـدقيقة الفتاكة من إقصاء روح مترنيخ المسيطرة بعيداً عن نطاق الرايخ الألماني ، وذلك بطريقة أفعل وأدوم مما أسفرت عن ثورة فينا عام ١٨٤٨ .

وما ساعد بسمارك على النجاح في سياستـه أن بروسيـا كانت على النقيض من النمسا . فقد كانت أوثق منها تضامناً ، وأكثـر كفاءة ، وأعلى كعبـاً في مدارج التقـدم . نعم ، بقيت الصناعة في أكثر نواحيها تسير على المستوى والأشكال الأهلية القـديمة ، يعـوزها رأس المـال وينقصها التنـظيم ، وبلغ من درجة تأخرها في شوط التطور والارتقاء ، أنه في سنة ١٨٤٠ ، كان أقل من ٤٠ ٪ من أنوال النسيج التي تملكها تدار بالبخار . ولكن كـانت قـد وضعت من قبـل نـظم تسـاعـد على التقـدم الصناعي والتجاري . ونظراً لأن مناجم الفحم والحديد كانت متوفرة في أجزاء ألمانيـا ، فإن الجـو كان صـالحاً فيهـا ، كما حصل في إنكلترا ، لقيام الصناعة . وقد أقيمت المصانع وقام

معها طبقة جديدة من العمال .

مزايا بروسيا / نجاح بسمارك :

إن المزايا التي اختصت بها بروسيا إلى جانب تطور الأحداث أدت إلى نجاح بسمارك في تحقيق وحدة الشعب الألماني حول معركته في توحيد ألمانيا . في سنة ١٨١٨ قام اتحاد جمركي أو « زلفرين » . ويرجع أكبر الفضل في قيامه إلى ماسن Massen وزير مالية بروسيا في ذلك الحين . وكان يقصد من ورائه ضم الممتلكات البروسية المبعثرة بعضها إلى بعض بتعريفة جمركية منخفضة . وقد بلغ من نفع هذا الاتحاد الجمركي ، ونفع الطرق البروسية الجديدة ، وخلاص ذلك خفض المكوس الداخلية والرسوم الجمركية في داخل أرضه ؛ إنه أفلح في خلال ثلاثين عاماً في جذب الولايات الألمانية إلى الانضمام إلى ذلك الاتحاد الجمركي . وبهذا العمل الجليل وضعت أسس دولة ألمانيا متحدة تحت هيمنة بروسيا على دعائم متينة قوية .

ثم ظهرت بشكل واضح على مر الأيام مزايا أخرى لبروسيا أعانتها على تبوؤ مركز الزعامة في الأمة الألمانية . فقد كانت النمسا كتلة غير متجانسة من الولايات المتعددة اللغات ، وكانت مشغولة بمشكلاتها الداخلية الشائكة التي جرتها في ذيولها محاولتها مصالحة شتى أجناس بعضها البعض . وبينما كانت النمسا تنجذب أكثر فأكثر صوب الصراع الدولي في

الشـرق ، أخذت مصـالح بـروسيا تتـركز داخـل نطاق الـرايخ الألمـاني نفسه . وعلى حين كـانت سياسـة النمسـا في عهـد مترنيخ مـوجهة إلى هـذا الهدف البسيط : وهـو قمـع جميـع الميول القوميـة والحرة في بـلادها ، والمحـافظة على سلطان ملكية مطلقة ، وكنيسة مطلقة ، بواسطة نظام شرطي صـارم ، فإن سياسة بروسيا كانت مشبعة بالغيرة العلمية ، مشربة بروح عملية تنزع إلى التقدم .

فبين حكومة ليس لها مذهب سياسي إلا مذهب الطاعة والامتثال ، وحكومة تعمل وتجـد لتنمية ثـروة الأمة المـادية ، وارتقائها في سلم العلوم والمعارف ، لا يمكن أن يقوم توازن وتكـافؤ . ولهذه الأسبـاب فـإن الحقبـة التي جـاءت بين عـام ١٨١٥ وثورة عام ١٨٤٨ ، تكاد تخلو من سناء المجـد . بيد أنها تبرز كفتـرة استعداد تهيـأ فيها العـدة لاتحاد ألمـانيا تحت التاج البروسي .

وفي خـلال تلك الحقبة ظهـرت وتـطورت في بـروسيـا نظرية من نظريات الحكم ابتـدعها فيلسـوف عظيم وتـأثر بهـا بسـمارك ، ونـظراً لأنها تتفق كثيـراً ومبـادىء الشعب الـبروسي الخلقية ونظمه ، تمت لها الغلبة في وقت قصير على النظريات الأخرى . ثم ذاعت بعد ذلك طولاً وعرضاً ، كعنصر أساسي في نظام كامل في المثالية الفلسفية . فقد دلل هيغل بكل قوة ذهنه الماضي الذكاء على المبدأ القائل بأن الدولة « إله يمشي

في الأرض » ، وأن الدولة أعظم من عودها ، وأن الحق يجب أن يدعم بالقـوة ، بل أن الحق هـو القوة . وبينمـا كان بنتـام الفيلسوف الإنكليزي يدلل على أن غاية الدولة يجب أن تكون الحصول على أكبر قسط من السعادة لأكبر عـدد من الأفراد ، جهر هيغل بأن رخاء الأفراد وسعادتهم يجب ألا يؤبه لهما إذا ما تعارضا مع عظمة الدولة . فألقوه في نظره أمر مسوغ . وبما أن الـدول قامت على القـوة ، فالحـرب هي جزء من متـطلبـات السيـاسة والسعـادة القوميـة . ونادى بـأن العالم مـوضـوع في المركز الذي ينبغي أن يكون فيه . وقال : بمـا أن الروح هي التي تحكم العالم ، فكل ما هو نـاجح لا بـدّ أن يكون حسنـاً طيبـاً ، وأن غايـة الدولـة لا يمكن أن تكون الإحسـان والجود العالمي ، بل ينبغي أن تكون دائماً هي سعادتها الخاصة بهـا وحدها والهيئة العليا التي فـوق الدولـة هي عالم الأرواح التي تزن الدولة بمدى نجاحها .

ومن السهل أن يشاهد المرء الخلاف الحاد الذي لا مـفر من أن يشجـر على الدوام بين هـذا الإدراك النفسي الغـامض للدولة ـ هذا الإدراك الـذي وضعها في مـصاف الآلهة ـ وبين النظرية المستمدة من مبادىء روسو التي تعد الدولة نتيجة عقد اجتماعي قائم على محض الاختيار والرضا . ففي نظر هيغـل أظهر الله نفسه في طبقـة نبيلة أو حاكمـة ، لا يصيبها الضعف والقصور ، إلا عن طريق الانتخابات الشعبية .

الفصـــل الثاني

سياسة بسمارك لبلوغ السلطة

حرب القرم :

إن السبب الظاهر لحرب القرم هـو الصراع بين الرهبان الكـاثوليـك والأرثوذكس حـول حراسـة الأماكن المقـدسة في فلسطين ، فالـرهبان الكـاثوليـك كانـوا يعتبرون أن من حقهم حراسة الأماكن المقدسة بموجب معاهدة معقودة بين السلطان محمـود الأول والملك لـويس الخـامس عشـر عـام ١٧٤٠ . وبـالمقابـل كان الـرهبـان الأرثـوذكس يـدعـون نفس الادعـاء مستندين إلى معاهدة كوجوك كاينردجيه الموقعة عام ١٧٧٤ بين السلطان عبد الحميد والقيصرة كاترين الثانية .

كان النزاع في حد ذاته تافهاً ، ولكنه استمد أهميته من الحقيقة بأن قيصر روسيا نقولا الأول كان يعاضد تعضيداً قويـاً المطالب الأرثوذكسية . وكان يعتبر نفسه سيد أوروبا والمسؤول الأول عن المحافظة على الأوضـاع الراهنـة . لقد زادت ثقتـه بنفسـه وبصحة سيـاسته ، بعـد تأييـد النمسـا ويـروسيـا لـه . بالمقابل كان نـابليون الثـالث امبراطـور فرنسـا يؤيد ادعـاءات الكنيسة الكاثـوليكية ، في وقت استتب لـه الأمر في الـداخل

وكان بحاجة إلى انتصارات خارجية ليقوي نفوذه . فجاءته الفرصة من القيصر الروسي بإثارته قضية الأماكن المقدسة .

وانتهى هذا النزاع المتعب المثير للخواطر ، بوضع الحكومة التركية سنة ١٨٥٢ تسوية له أثارت حنق القيصر الروسي . فأمر هذا الأخير بتعبئة الجيش الروسي وحشده على نهر بروث . وأوفد بعثة متغطرسة إلى الآستانة برئاسة الأمير منشيكوف لتطلب ، لا تقديم ترضية عاجلة فيما يتعلق ببيت المقدس فحسب ، بل أيضاً إبرام معاهدة بين الدولتين تفوق في مدى إرهاقها للسلطان العثماني جميع المطالب الروسية السابقة ، بحيث تضمن للقيصر في الواقع حق حماية جميع الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية . غير أن السلطان قرر رفض هذه المطالب برغم أن (ستراتغورد دي ردكلف) السفير البريطاني في الآستانة نصحه بقبولها .

بعد معركة سينوب ونتيجة لخوف إنكلترا وفرنسا من اجتياح القوات الروسية للآستانة ، تقدم الأسطولان الفرنسي والبريطاني إلى البحر الأسود . وإذ بالحرب بين تركيا وروسيا تجذب إليها فرنسا وإنكلترا . رئيس وزراء النمسا حاول مرة أخرى إنهاء النزاع بالطرق الدبلوماسية فدعا سفراء الدول الأوروبية ـ ما عدا روسيا ـ إلى عقد مؤتمر في فيينا . فقرروا في كانون الثاني ١٨٥٤ رفع مذكرة إلى الحكومة الروسية يطلبون فيها الانسحاب من إمارات الدانوب مقابل تعهد من الباب

العالي بأن يمنح المسيحيين امتيازات جديدة والإبقاء على المعاهدات السابقة المعقودة بين روسيا وتركيا سارية المفعول .

وفي أواخر شباط أنذرت الحكومتان الفرنسية والبريطانية ، روسيا بالانسحاب من أمارات الدانوب قبل ٣٠ نيسان . ولكن القيصر رفض الإنذار ، وأمر جيشه بعبور الدانوب مما أدى إلى إعلان الحرب من قبل بريطانيا وفرنسا في ٢٧ آذار ١٨٥٤ .

أما موقف النمسا وبروسيا فقد كان له أهمية فائقة . إذ أن غزو روسيا لن يكون ممكناً بدونهما . كان لكل من الدولتين موقف مختلف عن الآخر خاصة وأن إحداهما وهي النمسا لها مصالح في البلقان بينما روسيا ليس لها مصلحة هناك . إلى جانب ذلك لم تكن تنظر بعين الرضا إلى احتلال روسيا لإمارات الدانوب لأن هذا يؤدي إلى ازدياد نفوذها في البلقان حيث تطمع هي أن تكون المسيطرة بدلاً من روسيا . لذلك عقدت مع بروسيا في ٢٠ نيسان ١٨٥٤ معاهدة دفاع مشترك جاء فيها عزمهما على مقاومة كل جيش يقترب من حدودهما في البلقان . وعندما اجتاحت جيوش القيصر الدانوب سارعت حكومة النمسا في ٢ حزيران إلى تقديم إنذار شديد اللهجة إلى روسيا تطالبها بسحب جيوشها إلى ما وراء الدانوب وإلا اضطرت إلى إخراجه بالقوة ، وانصاع القيصر للإنذار

النمساوي وتراجع الجيش الروسي .

سارعت بروسيا إلى إعلان حيادها في الحرب . إذ لم يكن لها مصالح مباشرة في الأمبراطورية العثمانية . وكان البروسيون منقسمون على بعضهم ، الأوساط المحافظة وعلى رأسها الملك كانت ترى ضرورة اتخاذ موقف يتناسب مع موقف النمسا . وهناك موقف آخر قاده بسمارك الذي أراد فتح معركة الوحدة الألمانية مع النمسا . فراح ينادي بالوقوف موقفاً معادياً للنمسا يسمح لبروسيا بأن تكون الدولة الأقوى بين الدول الألمانية . كان بسمارك ينادي بتوحيد ألمانيا وكان يرى النمسا هي العائق الوحيد في وجه الوحدة .

في ٨ آب ١٨٥٤ اشتركت بريطانيا وفرنسا والنمسا بوضع مذكرة حددت فيها شروط الصلح بناء على اقتراح الأمبراطور الفرنسي نابليون . غير أن بروسيا عارضت هذه المعاهدة على أساس أنها تتعارض مع معاهدة الدفاع المشترك التي وقعتها مع النمسا في ٢٠ نيسان ١٨٥٤ وطلبت من حكومة فينا الوقوف على الحياد . واستطاع بسمارك ، ممثل بروسيا في مجلس فرنكفورت والخصم العنيد للنمسا ، استطاع أن يقنع مجلس فرنكفورت برفض الاعتمادات التي طلبتها النمسا من أجل تجهيز جيش للدخول في الحرب إلى جانب فرنسا وبريطانيا مما أدى إلى إفشال خطة النمسا . وهكذا يكون بسمارك قد أبطل مفعول التحالف الفرنسي البريطاني النمساوي وبالتالي

حرم فينا من لعب دور كانت تطمح فيه في البلقان . كما كان ذلك مؤشراً على أن بسمارك فتح معركة الوحدة الألمانية مع النمسا . وما هذه الخطوة إلا سيعقبها خطوات لتحقيق هدفه .

بسمارك رئيساً للحكومة :

إن تحقيق الوحدة الإيطالية على يد دولة البدمونت الصغيرة من حيث القوة العسكرية والمساحة ، أنعشت الآمال لدى الألمان لتحقيق الوحدة الألمانية على يد بروسيا الدولة الكبيرة من حيث القوة العسكرية والمساحة . لقد كانت ألمانيا ، مقسمة إلى ٣٨ دولة مجتمعة في اتحاد فدرالي ، فكانت النمسا هي المسيطرة على هذا الاتحاد باعتراف مؤتمر فينا لعام ١٨١٥ الذي اعتبر امبراطور النمسا رئيساً للاتحاد الجرماني .

بروسيا كانت ترغب بدورها أن تتزعم الاتحاد الجرماني بدل النمسا ، لأنها كانت تعتبر نفسها أكبر وأقوى دولة ألمانية ، وبالتالي كانت ترى بأن مسؤولية تحقيق الوحدة الألمانية تقع على عاتقها .

كانت بروسيا ترغب في تحطيم ذلك القيد الذي طوقها به مؤتمر فينا والانطلاق في سياسة قومية مستقلة . كما كانت ترى في بقاء الاتحاد بقاء للسيطرة النمسوية على الوطن الألماني ، وبالتالي بقاء بروسيا رغم قوتها ونشاطها تحت السيطرة النمساوية .

يبقى أن الصراع بين النمسا وبروسيا مسألة كثيرة التعقيد ومن الصعب إثارتها . فإن النمساويين لم يكونوا أجانب غرباء في نظر الألمان . بل كانوا يعدون بالأحرى عظماً من عظمهم ودماً من دمهم ـ جزءاً مكملاً لحياتهم . مع أن الكثيرين من الألمان تجيش في نفوسهم آمال بالوحدة الألمانية ، كانوا يهلعون وجلاً من شبح الحرب التي قد يجبرون علي خوضها ضد النمسا ، ويصرخون مطالبين بجعل ألمانيا دولة واحدة ، بينما كانوا يغمضون أعينهم ، حتى لا يرون الثمن البغيض ـ ولكنه الثمن الضروري ـ الذي سيلزمون بدفعه . ولو أن استفتاء للشعوب الألمانية كان أجري في أي وقت خلال العقد السابع من القرن المنصرم ، لما أقرت أغلبيتها حرباً ضد النمسا ، أو وضع ألمانيا تحت سيطرة بروسيا . ولم تكن حكومة تستطيع أن تفكر بالنهوض بهذ العمل الضخم سوى حكومة حزمت أمرها في قسوة وصرامة على الضرب بالرأي العام عرض الحائط ، والتعرض لخطر انقسام ألمانيا ، ومواجهة حرب أهلية بويلاتها الكثيرة ولم يكن ليضمن نجاح الوصول إلى هذا الهدف الكبير سوى أحكم الاستعدادات الحربية والدبلوماسية وأدقها .

لكل هذه الأسباب السالفة الذكر مع خطر زوال الزعامة النمسوية في أوروبا الوسطى إذا ما قامت فيها دولة ألمانية فتية قوية جعل النمسا لا تريد سماع فكرة الوحدة الألمانية وكان من المنتظر نجاح المساعي النمسوية لولا أن الظروف أوجدت في

ذلك الوقت في بروسيا رجلاً قوياً يعرف ما يريد ويعرف كيف يصل إلى ما يريد وأعني به بسمارك . هذا الرجل هو الذي جعل المساعي الرجعية النمساوية تبوء بالفشل وسار بالشعب الألماني بقوة وثبات نحو الوحدة التامة .

سيرة بسمارك :

ولد في سنة ١٨١٥ في براندبورغ البروسية . كان ينتمي إلى عائلة بروسية عريقة في أرستقراطيتها محافظة على التقاليد العسكرية وعلى ولائها للعرش البروسي . تلقى دروسه في برلين ثم دخل العدلية وعمل فيها فترة وجيزة عاد بعدها إلى بلده ليمارس العمل في أراضي عائلته الواسعة . قام بدور كبير في السياسة الداخلية البروسية بين أعوام ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٠ حين انتخبه سكان المقاطعة ممثلاً لهم في المجلس النيابي حيث قام بواجبه خير قيام لما أوتي من موهبة خطابية وحجة قوية بليغة . ثم عين بعد ذلك ممثلاً لبلاده في فرانكفورت أي في مجلس الاتحاد . شغل خلال العشر سنوات السابقة لتوليه رئاسة الحكومة مراكز دبلوماسية من الدرجة الأولى في بلاطات أوروبا في سان بطرسبرغ وفي باريس . ولذلك فإنه قد اتصل بالمشكلات الدولية الكبيرة . وكان هذا الاتصال ضرورياً للغاية ، لنهجه السياسي الداخلي . في بطرسبرغ قاس ضعف امبراطورية روسيا وتمكن في باريس من أن يقترب من نابليون الثالث ومن تقييمه .

إن شخص بسمارك الضخم الجبار الـذي كان يـرى أن الرجل ما ينبغي له أن يلقى ربـه إلا بعد أن يـدخن مائـة ألف سيجار ، ويجرع في جوفه خمسة آلاف زجاجة من الشمبانيات إن شخص بسمارك لهو استجابة الطبيعة السخية الواسعة الكرم للشروط القاسية التي كان يفرضها هذا العمل الهائل على من يتقدم للاضطلاع به . فإن من خصائص ذلك الرجل الفذ ، أنه بينما كان مرناً غاية المـرونة في الجـزئيات ، أدرك من بـادىء الأمر الوجوه الكبرى للمسألة الألمانية ، ولم يسمـح بتاتـاً لأية همسة من همسات الضمير أن تتدخل في تنفيذ خططه ، ففي سنـة ١٨٦٢ ، أي بعد مضي عـام على وفـاة كـافـور ـ أفضى بسمـارك إلى رئيس الـوزراء البـريـطاني دزرائيلي يقصـده في إشهار الحرب على النمسـا في أول فرصـة مواتيـة . وقد قـال يومئذٍ ذلك اليهودي النافذ البصيرة لمن حوله : « خذوا حذركم من هذا الرجل ، فإنه يعني ما يقـول » . والحق أنه مـا مضت أعوام أربعة حتى أشهر بسمارك الحرب التي رأى من أول الأمر لزومها لتحقيق خططه السياسية . هذا يرغم أن ألمانيـا قاطبـة كانت معادية لهذه الحرب كما أشرنا ، مستنكـرة إياهـا ، ولم يكن له من الأتبـاع غير فريق العسكريين . وقـد تميز حكمـه العجيب العـظيم ـ الـذي دام من أيلول سنـة ١٨٦٢ إلى آذار ١٨٩٠ ـ ، تميـز في بـدايتـه بمبـارزة من تلك المبـارزات الدستورية النادرة ذات الأهمية الدائمة في تاريـخ الأمم . فإن وليم الأول الذي تقلد زمام الأمر من بروسيا سنة ١٨٥٨ بوصفه

وصياً على العرش حين استحكمت أعراض الجنون على أخيه الملك فردريك وليم الرابع ـ كان جندياً بسيط المظهر ، حي الضمير ، يؤدي واجباته في أمانـة . وكان يمقت مقتاً عميقاً جميع الحركات الشعبية ، نتيجة لخبرتـه بثورة سنـة ١٨٤٨ ؛ ولم يكن ذلـك الملك الكهل متحليـاً بأيـة سجية من سجـايـا المثـالية الألمـانية ، بـل كان يكفيـه أن يعمل على أن تصبـح بروسيا قوية ، بحيث لا تجبر مرة أخرى بسبب ضعفها الحربي على أن تغض الطرف عن إهانة توجه إليها . ولقـد وجه هـذا الملك في البرت فون رون وزيراً للحرب حسبما يهوى فؤاده . فرسما معاً خطة لتكبيـر الجيش الروسي وإعـاده تنظيمـه . ثم قدما مشروع قانون إلى البرلمان البروسي يقضي بـزيادة عـدد الجيش . وجعل مدة الخدمة العسكـرية ثـلاث سنين بدلاً من سنتين ، وزيادة الاعتمادات المـالية للجيش . ولكن المجلس الأدنى (مجلس النواب) رفض ذلك المشروع .

وأبى كل من الملك والمجلس أن يحيد قيـد أنملة عن موقفه . وتعقد المأزق ، وطال أجـله . فالبرلمان يأبى الموافقة على زيادة الجيش وتقويته ، وفون رون وسيده الملك يجندان فرقاً جديدة ، كأن المال المطلوب وافق عليه البرلمان بالفعل . وأقيم بمناسبة رأس عام ١٨٦١ احتفال مهيب لتقـديم الإعلام للفرق الجديدة . وفي اليوم الثاني مات فردريك وليم الرابع ، فارتقى وليم الأول أريكة الملك ، وجابه في مطلع حكمه هذه الأزمة الدستورية الكبيرة . فأمر في ١١ أذار سنة ١٨٦١ بحل

مجلس النواب ، وأجريت انتخابات عامة في ٦ أيار . ولكنها خيبت آماله . فقد أعادت مجلساً أقل محافظة ، وأشد تصميماً من المجلس السابق على الإشراف على أعمال الحكومة .

تأزم الخلاف بين الفريقين ، ولم يبت مسألة إطالة مدة الخدمة العسكرية إلى ثلاث سنين ، بل نادى البرلمان بأنه يجب أن يكون السيد المطاع ـ كما هو الحال مع البرلمان الإنكليزي ـ وأنه ينبغي أن تقرر شؤون الجيش والمالية والسياسة الأجنبية وفق إرادة الشعب ، حسبما يعبر عنها ممثلوها . ولو أن هذا المطلب سلم به يومئذٍ ، لاتخذ تاريخ ألمانيا وأوروبا بأكمله وجهة أخرى .

بيد أن ما لقيه مجلس النواب في ذلك الوقت من مقاومة ناجحة يرجع إلى تدخل بسمارك القوي الصلب العود . فقد دعاه فون رون لإنقاذ الموقف . وقبل بسمارك أن يتقلد رئاسة الوزارة .

فلسفة بسمارك السياسية :

ما إن عين بسمارك رئيساً للوزارة عام ١٨٦٢ في بروسيا حتى بادر إلى العمل المجدي . وقد قال بعد تعينه بأسبوع واحد : « إن المشاكل الكبرى القائمة اليوم لا يمكن حلها بالخطابات وقرارات الأغلبية وإنما بالحديد والنار » .

كانت سياسة (الحديد والنار) التي أصبحت شهيرة في كل مكان هي السياسة التي كرس بسمارك لها جهده وحنكته .

فقد كان يبغض البرلمانات والمجالس النيابية ولا يجاملها . ومع أنه كان يمثل العصر البائد ، إلا أنه جعل الحاضر يلين بين يديه ويتمشى طوع أمره إلى أن صب ألمانيا في قالبها الجديد ، وصاغ قالباً آخر لأوروبا بأسرها في فترة النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وقد جعل من ألمانيا المعروفة بالفلاسفة والعلماء ألمانيا أخرى تعتمد على الدم والحديد والمهارة الحربية وجعلها تبسط سيطرتها على شؤون أوروبا . وقد قال أحد معاصريه من الألمان : « إن بسمارك يرفع من شأن ألمانيا فيحط من شأن الألمان » . وقد سحرت سياسته الرامية إلى جعل ألمانيا القوة الكبرى في أوروبا والعالم الألمان المتطلعين إلى العزة والكرامة القومية ، وجعلتهم يتحملون ما يفرضه عليهم من قيود .

وعندما تولى بسمارك رئاسة الوزارة نفخ روحاً من الشجاعة في الملك الوجل الذي كان قد كتب فعلاً إعلان تنازله عن العرش ، وواجه هجمات السياسيين العنيفة . ورغم إعصار من الطعن والهجو ، احتفظ بسمارك بوجهة نظره بأن الجيش في بروسيا أمر مقدس يجب ألا يخضع لأية سيطرة برلمانية . ومما هو جدير ذكره أنه عندما وضعت الحرب ضد النمسا أوزارها سنة ١٨٦٦ ، حصل بسمارك على قانون تضمينات صدق فيه البرلمان على النفقات التي كانت الحكومة قد تكبدتها من غير أن تنال تصديقه . ولم يبد على بسمارك أي مظهر من مظاهر التوبة والندم . فإنه لم يكن مستعداً ـ لا في

هذا الوقت ولا بعدئذٍ ـ أن يقبل السير بمقتضى النظام البرلماني الإنكليزي . وقد مكنه انتصار الجيش البروسي الساحق في تلك الحرب من أن يتحدى آراء الأعضاء الأحرار الذين كانت لهم الأغلبية في البرلمان من غير أن يخشى عقاباً ، وأن ينقش نقشاً عميقاً في الحياة الدستورية الألمانية هذا المبدأ ، وهو أن البرلمان وإن أجاز ضرائب جديدة ، أو ناقش مشروعات القوانين ، فإن هناك أموراً ثلاثة خارجة عن نطاق سلطانه وهي : ليس له أن يتناقش في المسائل الخاصة بالجيش ، ولا أن يضع سياسة الدولة ، ولا أن يؤلف أو يقيل الوزارات كما هو الحال في إنكلترا ، وقد استمرت هذه المبادىء يسترشد بها في الأوضاع الدستورية الألمانية حتى آخر أيام أمبراطورية آل هو هنتزولدن في أواخر الحرب الأولى . فلم يكن إسكات البرلمان ، والعمل على إصلاح الجيش إلا مقدمة للعمل الخارجي بالنسبة إليه : وطرح في إحدى مقابلاته مع سفير النمسا ، وبألفاظ محددة ، مسألة مستقبل ألمانيا : فعلى دولة آل هابسبورغ أن ترضى طوعاً أو كرهاً ، بالتخلي عن الدور الذي كانت تمارسه في الشؤون الألمانية و « تحول مركز نقلها إلى بست » .

ومنذ هذه اللحظة ، تأكد شكل بسمارك (وكان له سبعة وأربعون عاماً في سنة ١٨٦٢) ، ومع الملامح التي ستصبح كلاسيكية ، بعد قليل : الرغبة في السيطرة ، وحدة وجهات النظر ، وخصوبة الفكر السياسي ، والعزيمة الصلبة . وبميوله

كان يدأب على تأييد السمعة التي كان قد حصل عليها منذ كان يجلس في الدايت الجرماني ؛ فكان يحب ترك من يحدثه يصدع بجفاف نغمته ؛ ووحشية عباراته ؛ وإظهار الاحتقار بالنسبة لأسس القانون ؛ وكان يهمل الأسلوب الرقيق في الدبلوماسية التقليدية ، ويستخدم التهكم ، وفي بعض الحالات السخرية ، ويضيف إليها ألواناً من الاحتقار . وكانت هذه هي الوسائل التي يتغلب بها على من يتحدث إليه . ولكن القناع الصلب كان يخفي طبيعة عصبية وغير راضية ، وخدرة ، وحقودة ، حتى بالنسبة لخصومه الألمان أو منافسيه الممكنين وكان في وسع قوة العزيمة وحدها أن تسيطر على هذه المشاعر الصاخبة ولم يلبث معاصروه أن اعترفوا سريعاً بسيطرته . ومع ذلك فلم يكن فكره ذا ثقافة واسعة : فلم يكن له ذوق فني ولا إحساس موسيقي ، ولم يكن يهتم كثيراً بالشؤون العلمية ، ولا حتى بالدراسات التاريخية مع قربها الشديد من اهتماماته السياسية اليومية ، ولكنه كان يتمتع بموهبات رجل الدولة : الوضوح القوي ، غير المختلط بأي تقليد ، أو بأية نظرية ، ولا بأية عاطفة مسبقة والاستعداد لرؤية المصالح المؤثرة وتقدير القوى الموجودة والحكمة في استخدام أكثر من سلاح ، والدقة في الملاحظة النفسية ، التي سمحت له بأن يقدر حالة تفكير الخصم ، ويرى نقطة ضعفه ، والفراسة والنفاذ في تقديراته البعيدة المدى ، والشجاعة الفائقة التي تدفعه إلى التدخل بكل إمكانياته ، حينما يبدو له أن الفرصة قد أصبحت سانحة .

بسمارك والأحرار الألمان :

لم يرضخ أنصار إقامة حكومة مسؤولة في بروسيا لتحدي بسمارك لهم . فإن الأحرار الألمان الذين كانت كثرتهم رفيعة الثقافة عامرة الوطنية ، مع إدراكهم النفع الذي يترتب على تقوية الجيش ، كانوا لا يقلون اهتماماً بحماية الحرية القومية ولقد كانوا موضع عطف ولي العهد وزوجه الإنكليزية ـ ابنة الملك فكتوريا ـ. الذكية الفؤاد الممتلئة حماس ، ولكنها غير الحكيمة . وكان يؤيد أيضاً هؤلاء الأحرار أساتذة الجامعات بعلمهم ونفوذهم . ولم تكن ثمة قذيفة من قذائف الحجج والأفكار التي استمدوها من الجعاب الرحبة للتقاليد والتجارب البرلمانية الإنكليزية ، إلا صوبوها إلى رأس ذلك الوجيه البروسي المتعجرف الذي ذاد بمفرده عن حصن الحكم المطلق في بلاده ، ورد عنه كيد الهاجمين . غير أن بروسيا لم تكن إنكلترا ، فإنها كانت أشد منها اقطاعية ، وأميل إلى الروح الحربية ، وأكثر منها تأخراً في ميدان الصناعة ، نظراً لتأخر بدء النظام الصناعي الحديث فيها .

ولهذه الأسباب جميعاً كانت المبادىء الحرة في نظر بسمارك قوة لا يؤبه لها ، ولم يخشَ أن يظهر إزدراءه بها ، وكان يعتقد أن من اليسير عليه سحقها ، وإحلال مبادىء أخرى مكانها .

ومع أن بسمارك كان يحب الإنكليز ، ويجل قدرهم ،

إلا أنه كان يرى أن مبادىء الحكم الإنكليزي ، إذا هي نقلت إلى بروسيا ، فإنها تجر عليها الخراب والنكبات . ولهـذا كان من الضروري له قبل إعلانه الحرب على النمسا سنة ١٨٦٦ ، أن يسحق أتباع هذه المبادىء وطلاب الحرية في ألمانيا . ولقد كان نصره في هذا المضمار تاماً باقي الأثر . بل لقد سطر فوزه بحروف من نار في تاريخ العالم . فإنه قاد ألمـانيا في طـريق سياسات بعيدة الأهداف من التوسع ، تقوم على تنفيذ بـرامج حـربية وبحـرية طـويلة الأمد . وكـانت الدولـة في عينـه قـوة والحرب ـ كما علَّم كلاوزفتر القائد والكـاتب الحربي الـذائع الصيت (١٧٨١ ـ ١٨٣١) ـ إن هي إلا مـواصلة السياسـة ، والغـاية والـواسطة تتفـاعلان إحـداهما مـع الأخرى . فكلمـا ازدادت السياسة أطمـاعاً ، ازداد نـطاق التسلح ، وكلما ازداد نطاق التسلح ، اتسعت مجالات السياسة . ولهذا فإن تحـول أوروبا إلى معسكر مدجج بالسلاح كان نتيجة محتومة لهـزيمة الأحرار البروسيين عام ١٨٦٢ ، وكانت طريق مأمونة العقبى ، طالما كان بسمارك ممسكاً بسكان الدولة .

المشروع النمساوي لمواجهة بسمارك وفشله :

في مستهل الأيام الأولى من وزارة بسمارك قامت عقبـة أوشكت أن تهدم خططه كلهـا . وزاد من خطورة هـذه العقبة تواريها عن الأنظار . ذلك أن النمسا وجهت دعوة إلى الأمراء الألمـان لعقد مجلس منهم في فـرنكفورت للنـظر في مشروع

قدمته لإصلاح الدستور التعاهدي للريخ الألماني . رأى بسمارك أن هذا المشروع يمثل مكسباً للنمسا ، وعلى حساب بروسيا ، ولذلك عمل على إفشاله ولم يشارك في المؤتمر ، وأرسل برأيه إلى المؤتمر ، الذي افتتح في ٤ آب ١٨٦٣ ، مصراً فيه على ضرورة أن يكون لبروسيا مثل ما للنمسا في الاتحاد وبخاصة في رفض التصديق على إعلان الحرب ، وفي مسالة رئاسة الاتحاد ، وأنها لن تتنازل عن أي حق من حقوقها إلا لبرلمان يمثل الأمة الألمانية كلها .

تلازم عام افتتاح المؤتمر بضربة وجهها بسمارك إلى النمسا في بداية حكمه . فانتهز فرصة ثورة بولندا ، في نفس السنة ، الواقعة تحت الاحتلال الروسي وعزم على عدم مضايقة روسيا التي كانت قد استخدمت الشدة في قمع الثورة البولندية . بذلك انفصل بسمارك عن اتجاه الرأي العام في إنكلترا وفرنسا وحتى في النمسا ، الذي كان يعطف على الثورة البولندية ، ومد يده إلى روسيا وعقد معها اتفاقية حربية تحمل في ظاهرها دلائل الاهتمام المشترك في بسط الأمن في بولندا ، فتمكن بهذا التحالف العسكري مع روسيا أن يشعر باطمئنان في حالة إعلانه حرب على النمسا . وربما حتى على فرنسا فيما بعد . تزامنت هذه الاتفاقية مع اتفاق إنكلترا والنمسا وفرنسا على تقديم مذكرة مشتركة إلى روسيا تحضها فيها على منح عفو عام واستقلال داخلي في بولندا .

من جهة أخرى كان هناك ميل في غرب ألمانيا ، وحيثما التأم عقد الأحرار الألمان ، إلى العطف على شكاوى البولنديين ، سواءكانوا خاضعين إلى بطرسبورغ أم برلين ، والرغبة في رفع الجور عنهم . غير أن هذه العواطف الجميلة كانت مقيتة إلى قلب ذلك النبيل البروسي بسمارك الذي رأى أن العلاج الوحيد للمشكلة البولندية في بلاده هو تحويل البولنديين إلى بروسيين بأقل تأخير مستطاع والقضاءعلى لغتهم قضاء تاماً وإزالة ثقافتهم القومية من الوجود ، ونبذ تقاليدهم ، ومقاومة المبادىء الحرة التي كانت تسعى إلى الإبقاء على بعض مظاهر الأمة البولندية ، وذلك بانتهاج سياسة لا هوادة فيها لهضمها وتحويل أبنائها إلى بروسيين . وكان بسمارك لا يقل عن الروس في عدم قدرته على احتمال أي تدخل في تنفيذ هذه الخطط . وقد قال للجنرال « فليري » Fleury سنة ١٨٦٣ : « إني لأوثر الموت على أن أسمح بطرح مركزنا في بولندا على بساط البحث أمام مؤتمر أوروبي ، بل إني لأوثر على ذلك سلخ أراضي الرين نفسها » .

الفصـــل الثالث

محطات تاريخية لتحقيق الوحدة الألمانية

جاء بسمارك إلى الحكم وهو يحمل برنامجاً واسعاً يسعى لتحقيقه بطريقـة مدروسـة . كان يـرى أن هدف كـل حكومـة بروسية يجب أن يكون تحقيق الوحدة الألمانية إذ أنه كان يعتقد كما أشرنا أن زعامة بروسيا في ألمانيا تفرض عليها القيام بأعباء الوحدة . وإذا لم تقم بروسيا بذلك فإن هذا يعني أن الوحدة لن تحقق . لقد استطاع بسمارك أن يحقق الوحدة ولكن بعد ثلاثة حروب خاضها ضد الدانمرك والنمسا وفرنسا .

أولاً ـ الحرب البروسية ـ الدانمركية :

كانت الدوقيات الثلاث ـ شلزويغ Sheclswig وهولشتاين Holstein واللانبورغ Lanbourg متحدين بالدانمرك بموجب معاهدات تعود إلى القرن الثامن عشر بصفة اتحاد شخصي أي أن ملك الدانمرك هو في الوقت نفســه ملك الدوقيـات . ومع بـروز مبـدأ القـوميـات دبَّ الصـراع بين القـوميتين الألمـانيـة والـدانمركيـة . لقد كـان سكان دوقيـة هـولشتـاين من العـرق الجرماني ويشكلون جزءاً من الاتحاد الجرماني ، بينمـا دوقية شلزويغ كانت مختلطة . الدانمركيـون في الشمال وهم أقليـة

والألمان في الجنوب وهم الأكثرية .

ملك الدانمرك فردريك السادس (١٨٠٨ - ١٨٣٩) حاول ضم الدوقيات إلى مملكته ولكنه فشل بسبب معارضة المطالب بعرش الدوقيات وهو فردريك أوغشنبورغ الذي كان ينتظر انقضاء نسل الذكور في العائلة المالكة الدانمركية ليحصل على عرش الدوقيات . بالمقابل كان الألمان في الدوقيات الثلاث يشكون من هيمنة الدانمركيين ويطالبون بالانفصال . واختلف الألمان على الشكل الذي يتحقق فيه هذا الانفصال . كان أكثرهم - وهذه النظرية يفضلها خاصة أساتذة جامعة كيل بين ١٨١٥ - ١٨٣٠ - يدعمون نظرية عدم تقسيم الدوقيات ، أي أنهم كانوا يصرحون بأن شلزويغ وهوبشتاين تشكل كلاً واحداً ويجب أن يرتبط هذا الكل بأجمعه بالكونفدراسيون الجرماني بما في ذلك شلزويغ . وعلى العكس كان بعض المؤلفين الألمان أمثال لورنسن يصرحون بلزوم تقسيم الدوقيات حسب مبدأ القوميات .

المشكلة تفاعلت عندما أعلن ملك الدانمرك في تموز ١٨٤٦ ، بأن قانون الإرث المطبق في الدانمرك يجب أن يطبق في الدوقيات . وهذا يعني حرمان المطالب بعرش الدوقيات من تولي العرش لماذا ؟ لأن حسب القانون الجديد فإن شقيقة الملك شارلوت سوف تصبح هي ملكة الدانمرك والدوقيات بعد وفاة ابن الملك - الذي سوف يتسلم العرش عام ١٨٤٨

باسم فردريك الرابع ـ والذي لم ينجب ولداً ذكراً . بينما قانون الإرث المطبق في الدوقيات كان يحصر حق الإرث بالذكور فقط . وبناء على هذا القانون كان أوغستنبورغ الألماني ينتظر بفارغ الصبر انقضاء نسل الذكور في العائلة المالكة الدانمركية حتى يتسلم هو عرش الدوقيات .

أمام موجة الاحتجاج من قبل الألمان ، قرر الملك فردريك السابع ـ الذي خلف والده كريستيان الثامن على العرش عام ١٨٤٨ ـ أن يضم الدوقيات دستورياً إلى الدانمرك . عندئذٍ قرَّر ألمان الدوقيات تشكيل حكومة في مدينة كييل . فسارع الجيش الدانمركي إلى دوقية شلزويغ ليمنع الألمان من السيطرة عليها فطلبت دوقية هولشتاين المساعدة من الاتحاد الجرماني التي هي عضو فيه . فأدى ذلك إلى اندلاع الحرب بين الدانمارك من جهة وبروسيا والنمسا من جهة ثانية . فسارعت الدول الكبرى للتدخل فاجتمعوا في لندن ١٨٥٢ واتفقوا على ما يلي :

١ ـ إلغاء ضم الدوقيات دستورياً على الاتحاد الشخصي .
٢ ـ بعد وفاة الملك فردريك السابع ينقل العرش إلى الأمير كريستيان غلوكسبورغ بدلاً من شارلوت .
٣ ـ تنازل الأمير فردريك أوغستنبورغ عن حقوقه في عرش الدوقيات مقابل تعويض مالي .
٤ ـ تطبيق مبدأ المساواة بين الألمان والدانمركيين .

بعد مؤتمر لندن نقضت الدانمرك تعهداتها ، خاصة ما جاء في البند الثالث من معاهدة لندن ، فاحتجت بروسيا والنمسا على تصرفات الملك الدانمركي . وكذلك فعلت الحكومة البريطانية الموقعة على معاهدة لندن ، عندما أرسلت مذكرة إلى الدانمرك تذكرها بتعهداتها في المساواة بين الألمان والدانمرك .

الملك الدانمركي لم يصغِ إلى الاحتجاجات ، بل ردَّ عليها بإصدار دستور عام ١٨٦٣ ، نصَّ على ضم دوقية شلزويغ إلى الدانمرك . وهذا يعني فصل هولشتاين عن شلزويغ . هذا التصرف كان خروجاً على معاهدة لندن ، مما أثار الشعور القومي الألماني ، فطلبت دوقية هولشتاين من الاتحاد الألماني التدخل لتخليص شلزويغ من السيطرة الدانمركية . فهددت بروسيا الدانمرك باللجوء إلى القوة إذا لم تعد الأمور إلى نصابها .

في هذا الوقت توفي الملك فردريك السابع وتولى العرش أمير غلوكسبورغ . عندئذٍ أعلن الأمير أوغستنبورغ الألماني ـ الذي تنازل عن حقوقه في الدوقيات الثلاث بموجب معاهدة لندن ـ أعلن نفسه دوقاً على الدوقيات ، بحجة أن ملك الدانمرك خرق معاهدة لندن .

وجدت الحكومة البروسية الفرصة مناسبة للتدخل من أجل تحقيق الوحدة الألمانية التي كان بسمارك يسعى وراءها ،

فانحاز الأخير إلى أمير أوغستنبورغ ، وهذا يتمشى مع رغبات كل مناضلي الحركة القومية الألمانية ، بينما لا تستطيع النمسا أن تطالب بحقوق الألمان القومية وهي الأمبراطورية التي تضم قوميات مختلفة . لذلك ومن أجل أن لا تترك الساحة لبسمارك ، وجدت نفسها منساقة إلى جانب بسمارك من أجل أن تحافظ على نفوذها لدى الألمان . هذا اللقاء الفعلي نشأ لفترة من الزمن بين خصمين . فقد وجه بسمارك بالاتفاق مع النمسا إنذاراً إلى ملك الدانمرك يطالبه بإلغاء دستور ١٨٦٣ ، وعندما رفض الملك الدانمركي الإنذار ، دخلت الجيوش البروسية والنمسوية الدوقيات في شباط ١٨٦٤ ، مما أدى بملك الدانمرك لطلب المساعدة من الدول الموقعة على معاهدة لندن .

١ - بريطانيا : كانت في موقف حرج . في البداية صرحت بأنها غير مستعدة للتدخل في هذا النزاع لأن الملك الدانمركي لم يحترم تعهداته التي قطعها عام ١٨٥٢ . هذا الموقف يعكس رأي الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا التي كانت بصورة مستترة تعطف على الألمان لأن زوجها كان أميراً ألمانياً . كما وأن الشعب البريطاني كان يريد السلام والابتعاد عن الحرب التي تفرض على المواطن الإنكليزي أعباءً جديدة .

هذا من جهة ، أما من جهة ثانية كانت بريطانيا تنظر

بقلق إلى التوسع الألماني . خاصة وأن الألمان كانوا يفكرون في شق قناة تصل بين البلطيق وبحر الشمال. وتلك القناة تقع في مدينة كيل التي بدورها تقع ضمن الدوقيتين اللتين احتلتهما ألمانيا والنمسا . وشق قناة كيل سوف يؤدي إلى تسهيل انتقال البحرية الألمانية من البلطيق إلى بحر الشمال مما يهدد الأسطول البريطاني ، صحيح أن قوة بروسيا البحرية في ذلك الوقت لم يكن يحسب لها حساب ، ولكن بريطانيا كانت تنظر إلى المستقبل البعيد خاصة وأن قناة كيل لن تفتح قبل عام ١٨٩٥ . كذلك كانت بريطانيا تريد المحافظة على الدانمرك وقدرتها البحرية لتتسلم مفتاح بحر البلطيق وتستطيع أن تقف بوجه بروسيا . ومن أجل ذلك سعت بريطانيا لدى فرنسا طلباً للتدخل العسكري ووضع حد للحرب .

٢ ـ فرنسا : أما الأمبراطور الفرنسي نابليون الثالث فإنه لم يوافق على الاقتراح البريطاني بإرسال جيشه البري إلى جبهة الرين مقابل إرسال الأسطول الإنكليزي إلى جبهة البلطيق . لقد رأى نابليون بأن الاقتراح البريطاني ما هو إلا حرب جديدة بين بروسيا وفرنسا والتدخل البريطاني لن يكون متساوياً مع التدخل الفرنسي ، إذ أن الأسطول البريطاني لن يشترك في الحرب ضد بروسيا بسبب عدم وجود قوة بحرية بروسية ، بل لبروسيا قوة برية قوية . من جهة أخرى كان لنابليون وجهة نظر بالنسبة لقضية الدوقيات تختلف عن وجهة نظر بريطانيا ، لذلك لم يصغِ نابليون إلى الاقتراح البريطانى

بل تقرب من بسمارك واستعرض معه إمكانية توحيد ألمانيا بقيادة بروسيا . لقد صرح الأمبراطور في ١٣ نيسان ١٨٦٤ بقوله : « نحن الفرنسيون لا نستطيع أن نساند قضية القوميات في البندقية ونكافحها في الدوقيات » .

لقد كان نابليون يريد إضعاف النمسا من أجل الحصول على البندقية لتحقيق الوحدة الإيطالية . وكان من جهة أخرى يرى بأن يكون القسم الشمالي من الشلزويغ تابعاً للدانمرك لأنه مأهول بالدانمركيين ، وأن تنضم بقية الدوقيات إلى الاتحاد الجرماني .

٣ ـ موقف روسيا : كان لروسيا وجهتا نظر : من جهة تريد روسيا إضعاف بريطانيا والحد من الهيمنة البريطانية على البحار ، لذلك رأت بأن احتلال بروسيا للدوقيتين وشق قناة كييل سوف يؤدي إلى تطور البحرية الألمانية بسرعة من أجل منافسة بريطانيا وهذا لا يلحق الضرر بروسيا .

من جهة أخرى كانت روسيا ترى بأن التوسع الألماني ربما أدى إلى احتلال أراضي الدانمرك بكاملها مما يؤدي إلى انهيار الدانمرك ، فتسارع عندئذٍ السويد وتحتل ما تبقى من جزر تابعة للدانمرك . وبما أن السويد عدوة لروسيا فإن هذا سوف يؤدي إلى احتلال منافذ بحر البلطيق .

أمام هذا الموقف الدولي سارعت بريطانيا ودعت لعقد

مؤتمر دولي على غرار مؤتمر ١٨٥٢ ، ووافقت روسيا وفرنسا على الطلب البريطاني مما أدى إلى موافقة بروسيا والنمسا . فعقد المؤتمر في ٢٥ نيسان عام ١٨٦٤ في لندن . بروسيا اقترحت استقلال الدوقيتين تحت عرش فردريك أوغستنبورغ . بينما فرنسا وبريطانيا اقترحتا تقسيم الدوقيات ، بمعنى أن يكون القسم الشمالي من شلزويغ تابعاً للدانمرك والقسم الجنوبي بالإضافة إلى دوقية هولشتاين يحصل على الاستقلال . والسؤال المطروح : كيف يحدد خط التقسيم ؟ اقترحت فرنسا إجراءاستفتاء للسكان للاطلاع على رغباتهم . ولكن الدانمرك رفضت الاستفتاء مما أدى إلى استئناف القتال وهزيمة الدانمرك التي أجبرت على توقيع معاهدة فينا في ٣٠ تشرين الأول ١٨٦٤ ، وبموجب هذه المعاهدة أقر أولاً : تخلي الدانمرك عن جميع حقوقها في الدوقيات مع السماح للدانمركيين الموجودين في شمال شلزويغ بحق الاختيار بين البقاء أو الانتقال إلى الدانمرك . ثانياً : اتفاق النمسا وبروسيا على حكم الدوقيتين حكماً مشتركاً بصورة مؤقتة .

ثانياً : الحرب البروسية النمساوية :

ظهر لبسمارك أن مشكلة الدوقيتين لن تحل إلا عن طريق الحرب ولما كان هو ينتظر هذه الفرصة لعلمه أنها لن تحل فقط المشكلة القائمة بل ستحل أيضاً مشكلة مستقبل الوحدة الألمانية من أساسها . وذلك لثقة بسمارك بقوة جيشه وبقدرته على القضاء على فعالية الجيش النمساوي .

أدرك الجميع في أوروبا أن الحرب واقعة لا محالة ولذا أخذوا يستعدون لها . وقد اجتمع في آخر شباط سنة ١٨٦٦ مجلس الوزراء الألماني لبحث قضية الحرب وإمكانية الفوز فيها . وقد عرض الجنرال (فون مولتكه) القائد الأعلى للجيش رأيه بالموضوع فقال : إن بروسيا لا يمكنها وحدها أن تنتصر على النمسا . وإذا شاءت الانتصار فعليها أن تتحالف مع إيطاليا لأن وقوف إيطاليا إلى جانب بروسيا سوف يشغل ثلث القوى النمسوية مما يجعل إمكانية انتصار البروسيين كبيرة جداً .

ومنذ ذلك اليوم ، بدأ بسمارك يوجه جهوده نحو إيطاليا لكي يتحالف معها . وقد أخذ من جهة ثانية يعمل على إثارة المشاكل بوجه النمسا لكي يجعلها تثور وتعلن الحرب ، مما يجعل بروسيا لا تظهر أمام الدول الأوروبية بمظهر الدولة المعتدية .

وكان أول ما فعله في هذا المضمار أن قدم اقتراحاً للمجلس الاتحادي (Diéte) بأن تكون وفود الدول ممثلة لشعوبها لا لحكوماتها (يجب أن يلاحظ أن ذلك يعارض إلى حد كبير معتقدات بسمارك) .

والغاية الحقيقية التي كان يهدف إليها بسمارك هي إظهار بروسيا أمام الألمان والرأي العام الأوروبي بمظهر المدافع عن حرية الشعوب وإظهار النمسا من جهة ثانية بمظهر الدولة

الرجعية المعادية لتحرر الشعوب وللديمقراطية .

وقد صدق بسمارك في ظنه إذ ما إن عرض الاقتراح الجديد حتى عارضتها النمسا بقوة وشدة مما أضعف موقفها إلى حد كبير في المجلس وجعلها تفكر جدياً في الحرب مع بروسيا وهذا ما كان يسعى إليه بسمارك . وقبل أن تدخل في تفاصيل الحرب لا بد لنا من إلقاء نظرة على موقف دول أوروبا من هذه الحرب .

١ ـ **إنكلترا** : لقد كان موقف بريطانيا من القضية موقف المتفرج إلى حد كبير ذلك أنه لم يكن لها مصالح مهمة في أوروبا الوسطى . هذا كان موقفها من القضية بصورة عامة ولكن كان يهمها من ناحية ثانية أن لا تقوى دولة على أخرى بحيث يختل التوازن في أوروبا الوسطى .

وعلى كل حال فإن معارضة إنكلترا هذه لا تتجاوز المعارضة الدبلوماسية إذ أنها لم تكن على استعداد إطلاقاً للتدخل المسلح لتحقيق ما تريد وللحؤول دون ما لا تريد .

٢ ـ **إيطاليا** : كان لإيطاليا مصالح حقيقية في أوروبا الوسطى . ولكن لا يهمها إلى حد كبير التدخل في شؤون هذه المنطقة وإن كانت لا تمانع ضمناً في قيام دولة ألمانية على حدود النمسا تهددها دوماً وتقلل من استبدادها وغطرستها . ولكن من ناحية ثانية ، لإيطاليا قضية معلقة مع النمسا وهي قضية البندقية . فإيطاليا على استعداد دوماً للمساومة وللحرب

أيضاً في سبيل الحصول عليها . ولذا فقد تركز موقف إيطاليا على أساس أن هذه مستعدة للوقوف إلى جانب بروسيا ومحاربة النمسا إذا كان في ذلك ضمان للحصول على البندقية .

٣ ـ روسيا : منذ أن تسلم بسمارك زمام السلطة في بروسيا بنى سياسته الخارجية على أساس قيام محور روسيا ـ بروسيا إذ أنه اعتبر روسيا دائماً حليفته الطبيعية وذلك لأسباب مهمة جداً . إذ أن روسيا ليس لها أي مطامع في أوروبا الوسطى تتنافى ومصالح بروسيا ؛ فالمصالح الروسية موجودة في البلقان والشرق حيث ليس لبروسيا أية مطامع . هذا الواقع جعل قيام صداقة بروسية ـ روسية أمراً طبيعياً بعد أن اتضح عدم تعارض المصالح . وعلى هذا الأساس تعاونت الدولتان في أوروبا طالما أن بسمارك كان يحكم بروسيا . وعندما عرضت قضية الحرب النمسوية البروسية ، وجدت روسيا نفسها مسوقة لتأييد بروسيا .

٤ ـ فرنسا : لقد كان نابليون الثالث شديد العطف على كل حركة قومية حتى ولو كانت ألمانية . ولكن عطفه هذا كان يحول دون ظهوره مصلحة فرنسا . إذ أنه كان واضحاً بجلاء أن قيام دولة ألمانية موحدة على حدود فرنسا لن يكون في مصلحة هذه الأخيرة . ولذلك كانت فرنسا ترى كحل إمكانية قيام ثلاث اتحادات في ألمانيا : اتحاد الدول الواقعة شمالي ألماين . واتحاد الدول الواقعة جنوبي الماين . واتحاد ثالث يشمل

الأراضي التابعة للنمسا ومناطق السوديت . وإذا كانت بروسيا تقبل بهذه الشروط ، فإن فرنسا كانت على استعداد لتأييدها خصوصاً إذا ما تحالفت مع إيطاليا وتعهدت لها بتحرير البندقية . وعلى كل فإن فرنسا ليست مستعدة للاشتراك عملياً في المعركة مهما كانت الظروف والأسباب ولذا فإن موقفها يتسم بالحياد بصورة عامة .

المفاوضات :

بناء على رغبة فرنسا وعلى نصيحة العسكريين البروسيين بدأت مفاوضات دبلوماسية بين إيطاليا وبروسيا . وبعد تردد طويل من جانب إيطاليا قبلت بالتحالف مع بروسيا بعد أن نصحها بذلك نابليون وبعد أن وعدها بحمايته . وهكذا وقعت معاهدة تحالف بين بروسيا وإيطاليا في ٨ نيسان سنة ١٨٦٦ لمدة ثلاثة أشهر فقط .

وبعد أن تمت هذه المفاوضات الدبلوماسية ، وجد بسمارك أن الوقت قصير أمامه مما يضطره لخوض الحرب قبل نهاية الثلاثة أشهر ولذا أخذ يحشد جيوشه سراً على حدود النمسا ؛ فعلمت هذه بذلك وحشدت جيوشها علناً مما أثار عليها الرأي العام وأظهرها بمظهر الدولة المعتدية وهذا ما كان يريده بسمارك وخصوصاً بعد أن طلبت إلى المسرحين العودة إلى السلاح . وقبل بداية الحرب حاولت النمسا استرضاء الدول الألمانية بأن عرضت ترك أمر الدوقيتين لها . ولكن بسمارك

رأى في ذلك خرقاً لاتفاقية غشتاين الموقعة بين النمسا وبروسيا والقاضية بضم شلزويغ لبروسيا وهولشتاين للنمسا . وبدأت نذر الحرب وعندها اجتمع مجلس (الدايات) وصوتت أكثرية الدول الألمانية إلى جانب النمسا وخاصة الدويلات الكبرى : بافاريا وورتمبرغ والهانوفر والساكس .

بداية الحرب :

وفي ليل ١٤ ـ ١٥ حزيران ١٨٦٦ بدأت المعارك بين بروسيا والنمسا بعد أن أعلن وفد بروسيا اعتباره الاتحاد لاغياً وانسحب من المجلس . وعندما بدأت الحرب أرسلت النمسا جيشاً مؤلفاً من ٢٣٠ ألفاً لمقابلة الجيوش البروسية وأرسلت جيشاً مؤلفاً من ١٤٠ ألفاً ليرابط في الجنوب بانتظار الجيوش الإيطالية . وفي ٣ تموز وقعت بين الجيشين البروسي والنمساوي معركة فاصلة تدعى معركة سادوا Sadowa سحق فيها الجيش النمساوي على يد بروسيا . وقد تم النصر قبل أن تتمكن الدول الألمانية المحالفة للنمسا من مساعدتها . وفي نفس الوقت كان الإيطاليون قد بدأوا زحفهم من الجنوب فوقعت بينهم وبين النمسا معركة كوستوزا التي هزم فيها الإيطاليون رغم تفوقهم في العدد. وقد كان لمعركة سادوا دوي هائل في أوروبا لأنها أثبتت في نظر الأوروبيين عظمة الجيش البروسي وحسن تنظيمه وتدريبه كما أثبتت أن البروسيا قد أصبحت دولة كبرى يجب أن يحسب لها حساب في ميزان القوى في أوروبا . وقد كان أثر هذه المعركة أقوى ما يكون في

فرنسا ، فقد أدرك الجميع أن النصر البروسي تهديد مباشر للسلامة الفرنسية وأن الموقف الذي اتخذته حكومة الأمبراطورية الفرنسية قبل الحرب والذي اتسم بالحياد إن لم يكن بالتأييد الفعلي لموقف بروسيا كان بمثابة خطأ شنيع . وعلى هذا الأساس وجدت فرنسا نفسها مجبرة على القيام بدور الوسيط بين الطرفين وقد قامت بدور الوساطة هذا بناء لطلب النمسا . وبصورة خاصة لكي تمنع بروسيا من قطف ثمار انتصارها العسكري بشكل كامل .

قبلت بروسيا ذلك على مضض ولكن ليكون لهذه الوساطة فعاليتها كان يجب أن تقرن بعمل أو باستعداد عسكري كما كان يريد وزير خارجية فرنسا، وخوف نابليون وتردده وعجزه كل ذلك جعل الوساطة سلمية مما أفسدها وجعلها عديمة الجدوى والفعالية

وأخيراً تم الاتفاق في مجلس الوزراء الفرنسي على عرض الشروط التالية :

١ ـ المحافظة على الأراضي النمساوية عدا البندقية .
٢ ـ حل الاتحاد الجرماني الذي كانت تتمسك به النمسا .
٣ ـ الاعتراف لبروسيا بحق إنشاء اتحاد شمال الراين .
٤ ـ الدول الواقعة جنوبي النهر تشكل اتحاد تحت النفوذ الفرنسي .
٥ ـ إعطاء الدوقتين لبروسيا .

وقد قبل بسمارك بهذه الشروط لأنه كان لا يريد إذلال النمسا بينما كان الملك والعسكريون يودون تحقيق الاتحاد والتوسع على حساب المناطق النمساوية . ولكن بسمارك تمكن من إقناعهم . ذلك أن سياسة بسمارك كانت تهدف لتحقيق الوحدة الألمانية وليس إذلال النمسا والقضاء عليها . وأخيراً تم الصلح على هذا الأساس سنة ١٨٦٧ بين النمسا وبروسيا .

وفي ١٢ آب عقدت إيطاليا معاهدة الصلح مع النمسا ، على أساس أن تتنازل هذه لفرنسا عن البندقية وتهديدها بدورها لإيطاليا .

وبموجب هذه المعاهدات تكون ألمانيا قد خطت خطوات واسعة نحو الاتحاد . إذ أن ألمانيا أصبحت مقسمة إلى ثلاثة مناطق . اتحاد الماين وتتزعمه بروسيا ، اتحاد جنوبي الماين حيث للنفوذ الفرنسي أثر لا بأس به . وأخيراً قسم تسيطر عليه النمسا . وهكذا تمكن بسمارك من أن يقهر النمسا ويجعل مقاومتها للوحدة غير ذات أثر كما أنه سار شوطاً بعيداً في طريق الوحدة بأن أزال الاتحاد الجرماني من عالم الوجود .

تأثير انتصار بسمارك على فرنسا :

شعر الفرنسيون منذ أيام معركة سادوا بأن بلادهم لم تكسب من وراء الحربين اللتين شنتهما بروسيا ضد الدانمارك

والنمسا . وكان لهذه النتيجة السلبية أثر كبير على كل المستويات إذ وجهت للأمبراطور نابليون انتقادات عنيفة في البرلمان الفرنسي فقد حكم على فرنسا ، وأحاسيس الغيظ والحسد والقلق تغمرها ، أن تشهد انتصار بروسيا المدوي : هذا الانتصار الذي مكنها من ابتلاع هانوفر وهِسْ كاسل والدوقيتين الدانمركيتين ، ومن السيطرة فوق ألمانيا حتى نهر الماين ، ومن إضافة أربعة ملايين وربع مليون من الأنفس إلى سكانها ، ومن قلب التوازن الدولي بأكمله في وسط أوروبا ، على حين أن الأمبراطور الفرنسي لم يحرك مدفعاً واحداً أو عسكرياً واحداً لنيل مزايا معوضة لمملكته . وقد أعرب المارشال راندون Randon عن شعور الخيبة الذي تملك فرنسا يومئذٍ بقوله : « إن فرنسا هي التي هزمت في سادوا » . وكانت هزيمتها هزيمة عجزت الدبلوماسية الفرنسية عن مداواتها . فقد كانت ضربة بسمارك أسرع مما توقع الناس ، وجاء بحث الفرنسيين وراء الأسلاب متأخراً أكثر مما يجب .

وطالب الأمبراطور في الفترة التي توسطت موقعة سادوا ونشوب الحرب الفرنسية البروسية بكل صنف من صنوف الترضيات : كأن يعطى (بالأثينات الرين) وهِسْ ، أو السارومينز ، أو البلجيك ، أو لكسمبرغ . ولكن هذه الالتماسات التي لم تسندها القوة رفضت بلا مجاملة . غير أن بسمارك احتفظ بالدلائل التي تشير بتقدم الأمبراطور له بها ، واستخدمها ضده فى الوقت المناسب ـ الأمر الذي كان له أثر

حاسم في جعل الدبلوماسية الفرنسية تبدو كريهة ممجوجة في نظر بافاريا وإنكلترا .

ثالثاً ـ الدستور الألماني الجديد :

منح بسمارك الاتحاد الألماني دستوراً . ومع أن هذا الدستور لم يحو غير قليل من المبادى الحرة الإنكليزية ، إلا أنه كان متيناً قوياً ، بحيث احتمل العواصف والأنواء التي هبت عليه خلال اثنين وخمسين عاماً (١٨٦٦ ـ ١٩١٨) . وبمقتضى هذا الدستور ، أنشىء مجلس نواب سمي بالريشستاغ .

وكان هذا المجلس ينتخب بالاقتراع العام ، ولذا قام على أسس أكثر ديمقراطية مما كان يقوم عليها البرلمان الإنكليزي حتى سنة ١٩١٨ . ولكن طبقاً للمبادىء البسماركية ، لم يكن في مقدور الريشستاغ تأليف الوزارات أو إسقاطها ، أو الهيمنة على أموال الدولة أو القوات الحربية ، كما فعل البرلمان الإنكليزي عن طريق إجازته كل عام مشروع قانون الجيش وضرورة تصديقه على الأموال التي تنفق عليه . ولهذا لم يخوّل هذا المجلس الديمقراطي حق السيادة في الدولة . وكانت الهيئة الحاكمة الحقيقية للاتحاد هي المجلس التعاهدي Bundesrat . وكان يتألف في ذلك الحين من اثنين وأربعين مندوباً يمثلون حكومات ولايات الاتحاد الشمالي المختلفة . وكان هذا المجلس يتداول في هيئة سرية ، تحت

رئاسة مستشار الاتحاد ، الذي كان في نفس الوقت كبير وزراء بروسيا . وقد خال الكثيرون من النقاد البروسيين مجلساً كهذا مربكاً معطلاً للأمور بلا ضرورة . فكانوا يتساءلون : لماذا تعطي بروسيا عشرين أسرة مالكة صغيرة حق التمثيل في الهيئة الحاكمة العليا للدولة الجديدة؟ أو لم تكن الأنظمة المركزية أبسط وأفضل ؟ فقد كان في مقدور بروسيا أن تزيل هذه الأنقاض الدارسة من بقايا الماضي . فقد أنزلت ملك هانوفر عن عرشه وأنهت حكم بيته . فلماذا تعنى الآن عناية بالغة بالإبقاء على عدد من الولايات المنفصلة وتخويلها سلطة سياسية قد تستخدمها في التعطيل والتأخير ؟ بل أنها سمحت لسكسونيا أحد أعضاء الاتحاد الشمالي ، بأن تمثل في بلاط الملوك الأجانب بوزراء مفوضين مستقلين عن ممثلي الاتحاد .
بيد أنه ليس ثمة ريب في أن بسمارك كان حكيماً في مقاومة الغواية بأن يجعل ألمانيا الجديدة دولة موحدة . فقد كانت البيوت المالكة في الولايات المتحدة الألمانية المختلفة متأصلة الجذور في تربة التاريخ الألماني . وكانت تستطيع المساهمة بنصيب في أعمال الدولة . فلم يكن بسمارك ليكسب من وراء إزالتها غير خلق الصعوبات غير الضرورية في الشمال ، وغرس شعور مقت عنيف في نفوس الشعوب الألمانية الجنوبية لأية فكرة ترمي إلى إيجاد اتحاد أوثق عرى بينها وبين الولايات الشمالية .

أضف إلى ذلك أنه لم يكن هناك أي خطر من قيام

حكومة قوية ذات كفاية ومقدرة في داخل البناء الاتحادي . فقد كان لبروسيا أغلبية مأمونة في (البندسرات) . وكانت بروسيا هي بسمارك . فإنه بمقتضى أحكام الدستور الفذ الذي وضعه بسمارك ، كان مستشار الريخ الألماني مسؤولاً أمام ملك بروسيا وحده . ولم يكن هناك وزارة للاتحاد الألماني تعوق أعماله ، بل كان هو الرئيس الفعلي لجميع إدارات الحكومة وفروعها . ولم يكن البندسرات أو الريشستاغ ، أو برلمان بروسيا ليستطيع أن يقيله من منصبه ، أو يتحدى بدرجة فعالة إرادته ، بل كانت شخصية الوزير الأول الجبارة الهائلة تسيطر عاماً بعد عام على الموقف ، وتملأ أرجاء أوروبا طولاً وعرضاً بوعود خطبه القوية المدوية ، وتلقى على بني جلدته دروساً جديدة في فن حكم الجنس البشري .

ولهذا كانت الفوارق عظيمة بين النظم التي ابتدعتها كل من الدولتين القوميتين : إيطاليا وألمانيا ، هاتين الدولتين اللتين تدينان بكيانهما لكافور وبسمارك . ففي إيطاليا صحب انتصار القومية إنشاء نظم برلمانية على الطراز الإنكليزي . أما في ألمانيا فقد هزمت سيادة البرلمان على الحكومة هزيمة فاصلة . ولكن رغم أن النظام الحكومي الألماني وضع بحيث يضمن للأوتوقراطية البروسية الكلمة العليا ، فإنه حرمها من فوائد الدروس والعظات التي تنبه ساسة الدول البرلمانية وتقوم أخطاءهم . فإنه في فترات منتظمة كانت تيارات الانتخابات العامة المطهرة تطغى على الريشستاغ ، وتمكن شيعاً جديدة

من الرأي العام من التأثير في حياة البلاد السياسية . ولم تكن هذه التيارات تأتي وفق رغائب بسمارك على الدوام ، فإنه بينما استخدم الأحرار الوطنيون كل فن من أفانين الدعاية الشعبية للحض على الوحدة الألمانية ، وتأييد النظم الجديدة للدولة ، عملت الأحزاب الكاثوليكية والاشتراكية على تحدي بسمارك ومقاومته .

رابعاً ـ الحرب البروسية الفرنسية :

الحرب البروسية الفرنسية هي الفصل الأخير من فصول الوحدة الألمانية . وقد رأينا منذ البداية أن فرنسا كانت تخاف الوحدة الألمانية إلى حد كبير أنها ترى وجود دولة ألمانية على حدودها الشمالية يهدد سلامة الأراضي الفرنسية . وقد كان بسمارك يدرك هذه الحقيقة فوضع خطته على أساس قهر النمسا أولاً ثم فرنسا ثانياً كمقدمة للوحدة الألمانية . وقد جاء تدخل نابليون في الحرب بينه وبين النمسا يزيد بسمارك اقتناعاً بأن فرنسا لم تتدخل إلا لتأخير الوحدة وعرقلتها . ولذا فإنه ما أن انتهى من الصراع مع النمسا حتى أخذ يستعد لمواجهة فرنسا ولكنه من جهة أخرى كان يهمه أن تكون فرنسا هي المعتدية في كل حرب مع ألمانيا . وقد ظل بسمارك يسعى لذلك حتى تهيأت له الفرصة سنة ١٨٧٠ .

العلاقات الفرنسية الألمانية حتى سنة ١٨٧٠ :

بعد انتهاء الحرب بين النمسا وبروسيا شعر نابليون

الثالث بأن الفرصة قذ فاتته إذ كان بإمكانه أن يفرض ما يشاء من مكاسب لمصلحة فرنسا حين قام بوساطته بين الدولتين . أراد أن يعوض عما فاته فأخذ يطالب بروسيا ببعض التعويضات الإقليمية . طلب أولاً بعض الأراضي الألمانية على الراين . ولكن بسمارك رفض ذلك بحجة أنه لا يملك حق التصرف في الأراضي الألمانية ثم عاد نابليون وطالب بلجيكا واللوكسمبورغ . فقبل بسمارك مبدئياً ولكنه اطلع إنكلترا من طرف خفي على نوايا نابليون مما أحرج موقف فرنسا ثم عاد نابليون وطالب للمرة الثالثة باللوكسمبورغ فقط ولكن بسمارك رفض ذلك أيضاً فلجأت فرنسا إلى احتلال اللوكسمبورغ مما جعل الوضع يتأزم في أوروبا . عند ذلك عقد مؤتمر في لندن سنة ١٨٦٧ تقرر في أثنائه أن تكون هذه الدولة منطقة حياد بين بروسيا وفرنسا .

وهكذا يفشل نابليون الثالث في جميع المحاولات التي قام بها للحصول على بعض المكاسب في أوروبا ، مما جعله يحقد على بروسيا ويصمم على محاربتها .

ومما زاد في تأزم الأوضاع ، أن بسمارك لم يكتف بما حققه من مكاسب عقب الحرب النمساوية البروسية . بل عقد في سنة ١٨٦٧ معاهدات تحالف بين اتحاد ألمانيا الشمالية وبين بعض دويلات ألمانيا الجنوبية ، وفي ذلك دليل على

تصميم بسمـارك على تحقيق الوحـدة الألمانيـة رغم معارضـة فرنسا لذلك .

وهكـذا أخذ يتضـح شيئاً فشيئـاً أن الحرب بين بـروسيا وفرنسا واقعـة لا محالـة إذ أن بسمارك لن يتـراجع عن تحقيق الوحدة وفرنسا لن تسمح بذلك إطلاقاً . ومما زاد في حـراجة الموقف أن السياسة الداخلية التي كان يتبعهـا نابليـون الثالث أثبتت فشلهـا إلى حـد كبيـر ممـا جعله يفتش عن انتصـارات عسكرية أو سياسية يقوي بها أركان حكمه المترجرج . ويشغل الفرنسيين عن الاهتمام بمشاكل كل فرنسا الداخلية وأوضاعها المتردية اقتصادياً ومالياً واجتماعياً .

الموقف الدولي حتى سنة ١٨٧٠ :

منذ أن شعر الفريقان في عام ١٨٦٧ ، أن الحرب واقعة لا محالة أخذ كل منهما يعمل على تهيئـة وضع مـلائم له في أوروبا . ففرنسا أخذت تفتش عن حلفاء لها ضد بروسيا وذلك لعلمهـا بأن الجيش البـروسي قوي وربمـا عجـزت عن قهـره لوحدها . أما بروسيا فكانت واثقة من قوة جيشها وقدرته على سحق فرنسا . فإنها أخذت تسعى لعرقلة الجهود الفرنسية في أوروبا ولضمان حياد دولها الكبرى . وهنا سنعـرض باختصـار موقف كل من هذه الدول .

١ ـ النمسا : في سنة ١٨٦٧ تبدل وجه النمسـا بعد أن

تحالفت مع المجر وأصبحت تدعى امبراطورية النمسا المجر . وهـذا يعني أن النمسا لم تعـد وحدهـا تقرر سيـاسـة الـدولـة ومصيرها بل يشاركها في ذلك المجربون .

ثم ان النمسا بعد هزيمتها أمام بروسيا سنة ١٨٦٦ غيرت أسس سياستها وجعلت اهتمامها ينحصر في الشؤون البلقانيـة وشؤون المتـوسط وبذا أصبـح خصمها الـرئيسي روسيا وليس بـروسيا . وعلى هـذا الأساس وجـدت فرنسـا أنـه لا يمكنهـا الاعتماد إلى حد كبير على النمسا التي لم تعـد تهتم بالشؤون الألمـانية . ورغم العـروض الكثيرة والمتكـررة ورغم الأماني السخية التي عرضها نابليـون الثالث على النمسـا مقابـل عقد تحالف مع فرنسا ضد بسمارك ، فإن نابليـون لم يحصل على أي نتيجة إيجابية من قبل حكومة النمسا .

٢ ـ روسيا : لم يكن روسيا تشعر بأي خـطر من جراء قيام الوحدة الألمانية بل بـالعكس كانت روسيـا على استعداد دوماً لتأييـد بسمارك ذلـك أن روسيا كـانت دوماً تهتم بقضـايا منطقة البلقان من جهة ومراقبة الوضع في بولونيا من جهة أخرى مخـافة تجـدد الثورة التي قـامت سنة ١٨٦٣ . وكـانت روسيا تحرص على صداقة بروسيا لبقاء استقرار الوضع في بولونيا .

٣ ـ بريطانيا : كان الحكم في ذلك الوقت في إنكلتـرا بيـد الأحـرار الـذين كـانـوا منصـرفين إلى معـالجـة شؤون الأمبراطورية الداخليـة : أميركـا ، كندا ، الحـدود الهنديـة ـ

الروسية ، الشؤون الانتخابية ، كل هذا صرف إنكلترا عما يجري في أوروبا ولكنها رغم ذلك ظلت تتمسك إلى حد كبير ببقاء التوازن الدولي في أوروبا على حاله . ولهذه الأسباب لم يحصل أي تحالف بين إنكلترا وفرنسا .

٤ ـ إيطاليا : عندما فشل نابليون بالتحالف مع الأمبراطور فرنسوا جوزيف التفت إلى ملك إيطاليا فيكتور عمانوئيل ليشركه في المفاوضات الدائرة بين فرنسا والنمسا لعله يستطيع هذه المرة أن يصيب نجاحاً . وبالفعل استطاع نابليون أن يتوصل عام ١٨٦٩ إلى وضع مشروع معاهدة بينه وبين النمسا وإيطاليا تضمن كل دولة سلامة الدولة الأخرى . ولكن الاتفاق لم يتم بصورته النهائية : بسبب الموقف الإيطالي الذي طلب من نابليون سحب حامياته من روما . ولكن نابليون رفض الطلب الإيطالي لأنه كان يخشى إثارة الرأي العام الكاثوليكي الفرنسي ضده ، مما أدى إلى انهيار الاتفاق الثلاثي واستعيض عن مشروع المعاهدة بتبادل رسائل بين الدول الثلاث ، أعربت فيها كل دولة عن رغبتها في تنسيق سياستها الخارجية مع الدول الأخرى ، وجرت مشاورات عسكرية بين الفرنسيين والنمساويين ووعد الامبراطور النمساوي فرنسوا جوزيف نابليون بمساعدته في الحرب شرط أن لا تكون فرنسا هي البادئة بإعلانها . ولكن فرنسا هي التي بدأت بإعلان الحرب .

وهكذا جاء عام ١٨٧٠ دون أن تحصل فرنسا على حليف قوي يساعدها في حربها بروسيا بينما كان بسمارك قد ضمن صداقة روسيا وحياد إنكلترا والنمسا . وعند ذلك بدأ يدفع فرنسا لكي تعلن الحرب ، ذلك أنه كان لا يريد أن يظهر في أوروبا بمظهر الرجل المعتدي .

أسباب الحرب :

في سنة ١٨٦٨ طرأت مشكلة جديدة زادت في توتر العلاقات الفرنسية البروسية وأعني مشكلة العرش الأسباني ذلك أنه أثر صراع طويل بين الشعب الأسباني والأسرة المالكة فرت الملكة إيزابيلا من أسبانيا تاركة العرش الأسباني . فباتت مقدرات إسبانيا بيد رئيس وزرائها (بريم) Prim الذي صار عليه أن يحل مشكلة خليفة العرش . وقد رأى الجميع ضرورة استمرار الحكم الملكي ولذا بدأ البحث في أوروبا عن أمير لعرش أسبانيا . وقع الاختيار على الأمير ليوبولد من عائلة هوهنزلرن قريب قيصر بروسيا وشقيق ملك رومانيا وقد أعلنت فرنسا معارضتها لهذا الترشيح بصورة علنية فبقيت القضية دون حل حتى قدوم موفد خاص من قبل Prim لإقناع ليوبولد بالقبول إذ أنه كان زاهداً في هذا المنصب ولم تنجح مهمة هذا الموفد . وفي سنة ١٨٧٠ عرض الأمر مجدداً على الأمير الذي أحال الطلب إلى الملك البروسي . وقد تحمس بسمارك كثيراً لهذه القضية باعتبار أن وجود ملك على عرش مدريد من عائلة هوهنزلرن سيجعل من أسبانيا كماشة . وبذا تصبح فرنسا أقل

معارضة لمصالح بروسيا ، ولكن الملك البروسي ظل متردداً لأنه كان يخاف من معارضة فرنسا القوية ومن إمكانية وقوف الرأي العام في أوروبا إلى جانبها ، وكذلك لبويولد . إلا أن بسمارك بعد جهود جبارة تمكن من إقناع الملك والأمير . وأبلغ بسمارك قرار القبول في ٢١ حزيران سنة ١٨٧٠ إلى الجنرال الأسباني .

ما إن علمت فرنسا بالأمر جتى أعلنت معارضتها الشديدة له وكلفت سفيره في برلين بأن يقابل الملك الذي كان يقضي الصيف في Ems ويطلب منه التدخل لسحب الترشيح . وقد تمكن من إقناع الملك الذي كلف أحد مرافقيه بإبلاغ رغبة الملك إلى ليوبولد .

ولكن الحكومة الفرنسية لم تقنع بذلك ، وأصرت على الحصول على تعهد خطي من الملك فعاد السفير لمقابلته ولكنه لم يتمكن لأن الملك كان يستعد للعودة إلى برلين .

وإلى هنا كان بسمارك غائباً والأمور تجري بغير علمه ولما أرسل له الملك برقية يوضح فيها الأمور ثار بسمارك وخاف أن تجري على غير ما يريد وعندها عمد إلى نشر برقية الملك بشكل مقتضب بحيث ظهرت وكأنها إهانة توجه للشعب الفرنسي بشخص سفيره . وهنا حدث ما كان يريد وينتظر بسمارك فثار الشعب الفرنسي بشكل عنيف جداً وأخذ يطالب بالحرب . وفي ١٤ تموز عقد مجلس الوزراء الفرنسي ثلاث

جلسات متوالية أقر فيها طلب اعتمادات عسكرية في المجلس . وفي ١٩ تموز وافق مجلس النواب على الطلب وبذا أعلنت الحكومة الفرنسية الحرب على بروسيا .

وقد أعلنت روسيا في ٢٠ تموز حيادها . ثم عادت في ٢٣ تموز فأعلنت أنها ستبقى كذلك طالما أن النمسا محايدة أما إذا حاربت النمسا فإن روسيا ستحارب إلى جانب بروسيا . أما إنكلترا فإنها أعلنت حيادها . هكذا أصبحت فرنسا وحدها أمام بروسيا .

سير الحرب :

لقد أظهرت الأحداث الأولى للحرب أن الجيش البروسي كان كامل العدة والتدريب عندما دعي للقتال . ذلك أن القيادة العامة البروسية وعلى رأسها (فون مولتكه) بطل معركة سادوا ، قد أحسنت تدريب الجنود الألمان وإعدادهم بصورة دائمة للحرب ، كما أنها منذ سنة ١٨٦٧ درست إمكانية وقوع حرب قريبة مع فرنسا فوضعت لها الخطط ودرست تفاصيلها وأعدت لها كل أسباب النجاح . لقد درست أوضاع الجيش الفرنسي وعرفت إمكانياته وقدراته ونقاط ضعفه ، كما أنها اتخذت التدابير المناسبة للإفادة إلى حد كبير من الوسائل الحديثة كالتلغراف وسكك الحديد ومدفعية الميدان في عملياتها القادمة . أما الجيش الفرنسي فعلى الرغم مما كان له في أوروبا من صيت وسمعة كبيرة حسنة فقد كان

يفتقر للقيادة الحازمة والسلاح الحديث والمؤن والمواصلات السريعة .

بسرعة كبيرة ، وقبل أن يكمل الفرنسيون تعبئة جيوشهم ، تقدمت الجيوش البروسية في الأراضي الفرنسية ناقلة المعركة إلى أرض أعدائها . وبعد يومين فقط من عبور البروسيين الحدود الفرنسية حققوا في ٦ آب على الجيوش الفرنسية انتصارين كبيرين أحدهما في الألزاس والثاني في اللورين . أثارت أخبار هذين الانكسارين في باريس موجة هائلة من السخط والفزع مما اضطر الأمبراطور نابليون الثالث للتنازل عن القيادة العليا للجنرال بازين Bazaine . .

غير أن هذا الأخير كان أعجز من أن يوقف التقدم البروسي السريع . فقد توجه للاعتصام في مدينة متز Metz الحسنة التحصين . إلاّ أن البروسيين لم يلبثوا أن فرضوا عليه حصاراً قوياً . وقد أظهر الجنرال بازين أثناء الحصار الكثير من التردد والتباطؤ أمام العدو مما عطل نهائياً قدرة جيشه البالغ تعداده ستة آلاف ضابط وماية وسبعين ألف جندي في وقت كانت فيه فرنسا بأمس الحاجة لهذا الجيش للدفاع عن أراضيها .

أما الجيش الفرنسي الآخر والذي كان يتجمع في مدينة شالون بقيادة الجنرال مكماهون والذي كان يسعى للتراجع نحو باريس للدفاع عنها ، فقد أمره نابليون بضرورة الإسراع نحو

مدينة متز لرفع الحصار عن جيش بازين المحاصر بالقرب من الحدود البلجيكية . غير أن القائد البروسي فون مولتكه تعقب هـذا الجيش في سيره والتقى بـه في (سيدان Sedan) حيث طوقه وأنزل به هزيمة ساحقة وأرغم حوالي مائة ألف رجل من جنوده على الاستسلام مع الأمبراطور نابليون ، وكان ذلك في الثاني من أيلول ١٨٧٠ .

وبوصول أنباء هذه الهـزيمة إلى بـاريس ، سقط النظام الأمبراطوري وأعلنت الجماهير الفرنسية الهائجة في الرابع من أيلول سنة ١٨٧٠ قيام الجمهـورية الفـرنسية الثـالثة وتشكيـل حكومة الـدفاع الـوطني المؤقتة . وقـد قررت هـذه الحكومـة متابعة الحرب إنقاذاً لشرف فرنسا وكرامتهـا . وبعد أن وصـل الألمـان في ١٣ أيلول إلى ضواحي بـاريس وفرضـوا الحصار عليهـا نقلت القيادة الحـربية الجـديدة مقـرها إلى مـدينة تـور وأخذت تدير الحرب من هناك ضد بروسيا .

وقد كان بإمكان هـذه الحكومـة أن تقوم بـأعمال هـامة خاصة بعد أن تمكن الزعيم الشعبي الفرنسي غمبتا Gambetta من جمع جيش بلغ تعداده حوالي مائة وثمانين ألف جندي لو أن الجيش الفرنسي النظامي تمكن من الصمود في المعركة . في ٢٨ أيلول سقطت مدينتا تول وستراسبورغ وفي ٢٧ تشرين الأول استسلم الجنرال بازين وجيوشه لمحاصريه فتفرغ الألمان آنـذاك لتشديـد الحصار على مـدينة بـاريس وأجبـروهـا على

الاستسلام في ٢٨ كانون الثاني عام ١٨٧١ رغم مقاومة أهلها الشديدة الباسلة .

وعقب إعلان الهدنة ، بدأت المفاوضات بين الدولتين غير أن بسمارك أصر على أن يقوم الفرنسيون بانتخاب جمعية وطنية توقع على الصلح بين الدولتين . وفي ٨ شباط ١٨٧١ ، جرت الانتخابات واجتمعت الجمعية الوطنية بعد أربعة أيام في مدينة بوردو وانتخبت السياسي الفرنسي تيير Thiers رئيساً للسلطة التنفيذية وفوضته بإجراء مفاوضات الصلح مع الألمان .

ولادة الامبراطورية الألمانية :

عقب معركة سيدان وسقوط الحكم النابليوني في فرنسا ، أدرك بسمارك أنه قد بات بإمكانه أن يبدأ تنفيذ الوحدة الألمانية دون أن ينتظر نهاية الحرب مع فرنسا . ولذا بدأ سلسلة من المفاوضات مع الملوك والأمراء في الولايات المتحدة الألمانية تهدف إلى تحقيق هذه الوحدة . كان عليه أول الأمر أن يصل مع هؤلاء إلى اتفاق على شكل الحكومة الألمانية الجديدة . ذلك أن عناصر الأحرار والمثقفين في كل الولايات الألمانية كانوا يريدون أن يقيموا دولة واحدة ديمقراطية مركزية تقضي على ما للأمراء والمقاطعات من امتيازات تاريخية . بينما كان أمراء وحكومات الولايات وبصورة خاصة الولايات الجنوبية مثل بافاريا يحرصون على كياناتهم

وامتيازاتهم . ولما كانت الحرب لم تنتهِ بعد ، وكانت الولايات الجنوبية تساهم فيها بشكل جدي فقد آثر إرضاءها .

ولذا فقد اختار النظام الاتحادي كشكل للدولة الألمانية الجديدة . وعلى هذا فقد بقيت الولايات والإمارات الألمانية على حالها وأعطت دولة بافاريا بصورة خاصة بعض الامتيازات كحقها بالإشراف على جيشها زمن السلم وفي الاهتمام بالسياسة الخارجية للدولة الألمانية . هكذا توصل بسمارك مع الأمراء الألمان إلى اتفاق على إقامة دولة ألمانية موحدة في الشؤون الخارجية والعسكرية يرأسها القيصر الألماني . وتحتفظ ضمن هذه الدولة كل ولاية ألمانية بسيادتها الكاملة في الأمور الداخلية .

ولما كان ملك بروسيا ، وهو المرشح الوحيد لتسلم عرش الدولة الألمانية الجديدة يرفض أن يتسلم التاج الألماني من الشعب ، فقد جعل بسمارك الأمراء الألمان يعرضون عليه تاج ألمانيا .

في ١٨ كانون الثاني عام ١٨٧١ اجتمع الأمراء والملوك الألمان في قاعة المرايا بقصر فرساي ، وكان ذلك قبل سقوط العاصمة الفرنسية بعشرة أيام فأعلنوا قيام الامبراطورية الألمانية وتوجوا وليم الأول ملك بروسيا رئيساً للدولة الجديدة ليحمل لقب القيصر الألماني .

معاهدة فرانكفورت :

بـدأت المفاوضـات بين بسمارك مستشـار ألمانيـا وتيير رئيس الحكومة الفرنسية في ٢٦ شبـاط . إلا أن المفاوضـات طـالت كثيـراً وتعثـرت أكثـر من مـرة بسبب صـلابـة بسمـارك وإصراره على فرض شروط الصلح تكون على درجة كبيرة من الشدة والقساوة ، وعلى الرغم مما أظهره الرئيس الفرنسي تيير من عناد ودبلوماسية ، فإنه قد فشـل في تغيير مـوقف بسمارك بشكل جذري . وأخيـراً وافق الفرنسيـون على شروط الصلح المـذلة التي فـرضهـا الألمـان بقـوة وعنـاد والتي ستكـون في المستقبـل وإلى حد كبيـر أحد أبـرز أسباب الحـرب العالميـة الأولى . وفي ١٠ أيـار ١٨٧١ تم توقيـع الصلح بين الدولتين وهو المعروف بصلح فرانكفورت ؛ وأبرز شروط هذا الصلح ما يلي :

١ ـ تحتل بروسيا مقاطعتي الألزاسي واللورين وكذلـك مدينـة متز .

٢ ـ تدفع فرنسا غرامة حربية مقـدارها خمسـة مليارات فـرنك ذهبي خلال خمس سنوات .

٣ ـ تحتل الجيوش الألمانية أراضي فـرنسا الشمـالية حتى يتم دفع الغرامة المالية (وقد دفعهـا الفرنسيـون كاملة خـلال ثلاث سنوات ليتخلصوا من جيوش الاحتلال البغيضة) .

وهكذا انتهت الحرب البروسية الفرنسية التي تعتبر من أهم الحروب الأوروبية خلال قرن من الزمن ، أي منذ معاهدة فيينا ١٨١٥ حتى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ . ونتيجة تلك الحرب :

١ ـ تحققت الوحدة الألمانية .

٢ ـ تحققت الوحدة الإيطالية بضم روما إليها بعد أن انسحبت القوات الفرنسية منها في ٢٦ آب ١٨٧٠ .

٣ ـ قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة .

الفصل الرابع

سياسة بسمارك بعد الحرب

أصبحت ألمانيا بعد الحرب الفرنسية الألمانية سيدة الدول الأوروبية ، وأصبح بسمارك زعيمها ، سيد الموقف السياسي في أوروبا . وتحققت الوحدة السياسية الألمانية تحت زعامة بروسيا . وهي الوحدة التي خاض بسمارك من أجلها ثلاث حروب كما أشرنا أو مهد لها فلاسفة الألمان وكتابهم وشعراؤهم ومؤرخوهم حتى أصبحت صلاة الألمان وهدفهم المقدس .

ولكن الانتصار الألماني على فرنسا ، ترك في نفس الفرنسيين أثراً لا يمحى إذ ليس من السهل أن ينسى الفرنسيون انتزاع الألزاس واللورين ، لذلك كان هدفهم التخلص في المستقبل من كلمة الانتقام . وترتب على ذلك ـ كما قال أحد المؤرخين الألمان ـ أن ألمانيا منذ أن تم تأسيس أمبراطوريتها وجدت فرنسا معولاً يتهيأ دائماً لتحطيم بنائها عندما تسنح لها الفرصة . أضف إلى ذلك ، أن أعداء ألمانيا كانوا يرون دائماً في فرنسا الحليف المتحمس . ولذلك كانت سياسة بسمارك تتجه للعمل على أن تتحاشى الدخول في نزاع آخر مع

الفرنسيين . وقد تجلت تلك السياسة في الكتاب الذي أرسله بسمارك إلى السفير الألماني في باريس وقال فيه : « نحن نريد أن تتركنا فرنسا نعيش بسلام » كذلك لم يحاول بسمارك أن يظهر أي شعور عدائي تجاه الجمهورية الفرنسية الناشئة ؛ ولكي يصرف أنظار الشعب الفرنسي عن الانتقام من أجل الأراضي الفرنسية المسلوبة حاول كثيراً توجيه أنظار الفرنسيين نحو الاستعمار في الخارج وهو في هذا يهدف إلى غرضين : أولهما إقحام الفرنسيين في حروب استعمارية في الخارج ، وثانيهما إثارة العداوة بينهم وبين الدول الأخرى . فشجع فرنسا على غزو تونس لكي تختلف مع إيطاليا وشجع إنكلترا على غزو مصر ليقوم نزاع بينها وبين فرنسا . ومع ذلك كان يشعر في قرارة نفسه أن لا سبيل إلى إصلاح ما أفسدته الحرب السبعينية بين الدولتين ، وزاد هذا الشعور قوة ما لاحظه من أن فرنسا قد أفاقت بسرعة عجيبة من الكوارث التي نزلت بها سنة ١٨٧٠ وبدأت تعمل في جد وسرعة لتنظيم جيوشها . وكان القائد الألماني مولتكه على حق عندما قال : « لقد كسبنا احترام العالم في الحرب الأخيرة ولكننا خسرنا حبه ، إن ما جنيناه بقوة السلاح في ستة أشهر ستضطر للدفاع عنه مدى خمسين عاماً .

عزل فرنسا :

لذلك وجه بسمارك كل همه نحو عزل فرنسا عن الدول الأوروبية حتى لا تستطيع أن تجد من بينها حليف تعتمد على معاونته ، لأنه كان يعتقد أنه ما دامت فرنسا بغير حليف فلن

تكون خطراً يهدد ألمانيا . وقد تسلطت تلك الفكرة عليه أثناء الحـرب الفرنسيـة ـ البروسيـة إذ كـان يخشى من تكـوين أي تحالف أوروبي يتدخل في اللحظة الأخيرة فيحرم الألمـان من ثمـار النصر . فقـد كان يعـلم تمامـاً أن إيطاليـا مثلاً لا تنس الخدمات التي أدتها لها فرنسا في حروب الوحدة ، وأن النمسا قـد تفكـر في أن تنتقم لنفسهـا بسبب طـردهـا من الاتحـاد الألماني ، وأن روسيا تستـطيع أن تعـرقل النصـر الألماني لـو قامت بأية حركة في الجبهة الألمانية الروسية ، ومع ذلك فقـد أمنت ألمانيا كل تلك المخاوف حتى انتصرت على فرنسا .

بسمارك يؤلف الجبهة الأوروبية :

وظـل ذلـك الخـوف من تكـوين جبهـة أوروبيـة ضـد الامبراطورية الألمانية ، يساور بسمارك حتى هداه تفكيـره إلى تأليف حلف دفاعي يضم بعض أعداء الأمبراطـورية الألمـانية القدامى ، واستطاع بدهائه أن يحقق تلك الخطوة مـع النمسا والروسيا ، وساعده على ذلك أن آل هابسبورغ قد فقدوا الأمل في إمكان استعادة سيـادتهم على ألمانيـا ، وتحولت السيـاسة النمسـاويـة إلى تحقيق بعض أطمـاعهـا في بلدان البلقـان . ولذلك كانت النمسا في أشد الحاجة إلى تأييد ألمانيا لها في سياستها الشرقية ضد العناصر السلافية ، وخصوصـاً أن روسيا كـانت تتجه نفس الاتجـاه لبسط سيطرتهـا على شبه الجـزيرة البلقانية .

أما عن روسيا فقد حاول بسمارك أن يتبع أيضاً سياسة من التفاهم معها ، ولا سيما أن العلاقات بين ألمانيا وروسيا ظلت طيبة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، بل إن الصداقة الشخصية بين العاهلين ولهام الأول امبراطور ألمانيا وابن أخيه ألكسندر الثاني قيصر روسيا ، قد زادت من تفاهم البلدين . وكان من السهل على بسمارك أن يقنع كلاً من النمسا وروسيا ، بأن التيارات الثورية والمبادىء الديمقراطية والاشتراكية التي انتشرت بين الجمهور الفرنسي وبعض الطبقات الألمانية والروسية ، أصبحت خطراً يهدد كيان الحكم الأوتوقراطي في الدول المحافظة ، وعليها إذن أن تعمل على تكوين حلف مقدس فيما بينها .

وفي سنة ١٨٧٢ ، تقابل الأباطرة الثلاثة في برلين ، ووصلوا إلى اتفاق شفهي فيما بينهم ، وقد أطلق على هذا التفاهم أو هذا الاتفاق اسم « عصبة الأباطرة الثلاثة » . والواقع أن هذا التفاهم لم يعقبه توقيع معاهدة بين الدول الثلاث ، ولكن كل ما حدث أن الدول الثلاث الكبرى ، روسيا وألمانيا والنمسا اتفقت جميعها على الإبقاء على الحدود الراهنة لأوروبا ، والعمل على تسوية المشكلات الناجمة عن المسألة الشرقية ، والمعاونة على إخماد الحركات الثورية في أوروبا .

واستطاع بسمارك أيضاً أن يستميل إيطاليا ، ثم توجت العلاقات الألمانية الإيطالية بزيارة الملك إيمانويل لبرلين عام

١٨٧٣ . وبذلك تم لبسمارك عزل فرنسا عـزلاً لا يكاد يكـون تاماً .

لكن ستثبت السنوات القادمة لبسمارك أن تحالف الأباطرة الثلاثة ليس من القوة التي يعتمد عليها وبالتالي فإن تأييد روسيا والنمسا له ليس تأييداً مـطلقاً . وقـد ثبت ذلك عـام ١٨٧٥ ، عندما أصدر الرئيس الفرنسي مارشال مكماهون ، الذي أصبح رئيساً للجمهورية في ٢٤ أيار ١٨٧٣ ، قـانونـاً جديـداً لتنظيم الجيش وزيادة عدد أفراده . فاحتج بسمارك على ذلك مدعيـاً أن هذا القانون ما هو إلا تهديد موجه ضد ألمانيا وهدد باللجوء إلى إعـلان الحرب إذا لم يـوقف مكماهـون العمل بـالقانـون الجديد . فلجأت فرنسا إلى طلب المساعدة الأوروبية وخاصة روسيا وبريطانيا . واستطاع وزير الخارجية الفرنسية دوق ديكاز أن يصيب نجاحاً دبلومـاسياً عنـدما جعـل القيصر يـذهب إلى برلين ليقنع بسمارك بالعدول عن الحرب وأنـه (أي القيصر) يضمن سياسة فرنسا السلمية . ومن هذا الموقف ثبت أن اتفاق الأباطرة الثلاثة ليس متيناً ؛ ولذلك سوف يتبـع بسمارك تجـاه فرنسا ، سياسة جديدة وهذا ما سوف نراه فيما بعد .

الفصل الخامس

المشكلة الشرقية ومؤتمر برلين ١٨٧٨

في أعقاب الانتصارات الكبرى التي أحرزها بسمارك على كل من النمسا وفرنسا ، أصبح التوازن الدولي غير واضح الاتجاهات ، فألمانيا أصبحت عملاقاً في قلب القارة الأوروبية ولكن لا تستطيع أن تسيطر عليها ، وفرنسا مهزومة ، وتعاني من اضطراب سياسي شديد ، ومع هذا كانت قادرة على أن تحد من نشاط العملاق ، خاصة وأن بريطانيا آثرت ـ بذكاء سياسي ـ أن لا تنتهز الفرصة وتنقض على فرنسا حفاظاً للتوازن الدولي ، وحتى لا تزداد الامبراطورية الألمانية قوة على قوة . وكانت كل من روسيا والنمسا لا تريدان أن تتطور الأمور إلى ما هو أعقد ما وصلت إليه ، وبالتالي كان هناك نوع من التوازن الدولي القائم على القلق من تطورات المستقبل ؛ ومن ثم كانت الأمور الدولية في حاجة إلى أزمة كبيرة حتى تكتشف كل دولة الطريق الذي يجب أن تسير فيه من حيث الارتباطات السياسية ، خاصة وأن فرنسا كانت تبحث عن قوة تتحالف معها ضد العملاق الألماني وكانت المشكلة الشرقية هي التي كشفت لبعض الدول الطريق التي يجب أن تسلكها . وتتركز

المسألة الشرقية حول الموضوعات التالية :

١ ـ الصراع التقليدي بين الشرق الإسلامي (الدولة العثمانية) وأوروبا الصليبية .

٢ ـ مشكلة نشوء ونمو الروح القومية لدى الشعوب البلقانية ، لدى السلاف أنفسهم من صرب وبلغار ، الأمر الذي كان يعرضها للاضطهاد العثماني بسبب وقوعهم تحت سيطرته .

٣ ـ كانت في داخل البلقان نفسه وإلى جانب التعصب القومي مشكلة التعصب المذهبي ، فبينما غالبية الشعوب السلافية أرثوذكسية كانت (الأفلاق والبغدان) كاثوليكية . وكانت هناك جيوب كاثوليكية في الشعوب السلافية إلى جانب الجيوب الإسلامية .

٤ ـ كما ظهر إلى جانب التهصب القومي رغبة في فصل الكنيسة على أسس قومية ، فأراد البلغار إنشاء كنيسة خاصة بهم لا يكون اكليروسها يونانياً أو أنها تتبع البطريرك اليوناني وإنما تكون كنيسة بلغارية مستقلة .

٥ ـ كانت هناك مخاوف من أن تضع روسيا يدها على منفذ لأي من خطوط المواصلات العالمية عبر آسيا الوسطى أو عبر الشرق الأدنى إلى الهند مستغلة ضعف الدولة العثمانية والحماس الصليبي لدى مسيحيي روسيا .

كان نمو التعصب السلافي القومي المسيحي في البلقان

المقاومة الإنكليزية ـ الفرنسية ـ النمساوية الشديدة للنمو الروسي على حساب الدولة العثمانية هي السبب في تأخير تصفية هذه الدولة .

ولكن وفق ماذا ستسير عليه الأمور بعد أن تجلت قيمة ذلك الوفاق الروسي ـ البروسي الذي مكن الروس من ضرب الثورة البولندية ١٨٦٣ ومن تخلصها سنة ١٨٧٠ من بنود معاهدة باريس ١٨٥٦ التي كانت تقيد النشاط الروسي البحري العسكري في البحر الأسود . مع الملاحظة أنه في ذلك الوقت أصبحت روسيا تهدد قلب الأمبراطورية العثمانية من جهتين : جهة أرمينيا ـ أرضروم وجبهة البلقان .

ومع الملاحظة، أن حاجة بسمارك إلى روسيا بعد ١٨٧١ ، أصبحت أقل منها قبل ذلك ، ومخاوف روسيا من ألمانيا بعد ١٨٧١ ـ أصبحت أكثر بكثير من مخاوفها من بروسيا قبل تلك السنة ، كان هناك نمو متزايد في المصالح الأوروبية في الدولة العثمانية ، في نفس الوقت الذي كانت فيه بريطانيا مطمئنة منذ حرب (القرم) إلى أن يدها عليا في توجيه السياسات الخاصة بمستقبل الشرق الأوسط .

وكانت الدولة العثمانية مستعدة لخوض حرب ضد روسيا إذا حاولت الأخيرة تقويض تلك الأسس ؛ ولكن بمرور الزمن أخذت السياسة البريطانية نفسها تتحول من سياسة الحفاظ على كيان الدولة العثمانية إلى سياسة احتلال واقتسام الدولة العثمانية ، وذلك بعد سنوات من الاضطرابات المالية

والتنظيمية التي اجتاحت الدولة العثمانية ومصر وتونس ، واضطرابات طائفية ، اجتاحت سوريا ولبنان ١٨٦٠ . ثم إن البلقان أصبح في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر منطقة لا يمكن السيطرة عليها والتحكم في تطور الأمور بها ، ومن ثم كانت هناك مخاوف في كافة العواصم الأوروبية من أن المشاكل البلقانية قد تورط أوروبا في حرب غير مجدية . وكان بسمارك ـ قد أدرك أن مفتاح الموقف الدولي في طريقة علاج مشكلات الشرق يجب أن لا تؤدي إلى صدام بين الدول الكبرى ، وأن دماء الأوروبيين الزكية يجب أن لا تراق بسبب هذه المسائل التي يجب أن تحل على مائدة المفاوضات ، وانه إذا أرادت الدول الكبرى إعادة النظر في التوازن فليتم هذا بتسويات ودية على حساب الدولة العثمانية .

كان بسمارك يريد سلاماً أوروبياً يجعل لألمانيا مكانتها العليا في تصريف الأمور الدولية ، وكان لذلك يرغب مخلصاً في رؤية السلام ينشر لواءه على العلاقات الألمانية ـ الفرنسية ـ البريطانية ، بل على العكس مما كانت تردده صحافة تلك الأيام كان لا يرغب في حرب فرنسية بريطانية ، تلك الحرب التي كانت كثيراً من المراجع تتوقعها بسبب توالي الأزمات ـ بعد ١٨٧٥ ـ بين هاتين الدولتين الاستعماريتين في عدة أجزاء من إفريقيا والبلاد العربية وآسيا . وقد كتب بسمارك مذكرة في ٢٠ تشرين الأول عام ١٨٧٦ يقول فيها : « إن تركيا بأسرها ، وما تشمله من أعراق بشرية مختلفة ، ليست بتلك

المؤسسة السياسية الهامة التي تبرر نشوب حرب طاحنة بين الدول الأوروبية المتمدنة إكراماً لها ؛ كما أن العطف على مصير هذه البلدان الداخلية في الامبراطورية العثمانية وعلى الشعوب التي تقطنها . لا يوازي في نظر أية حكومة ، التخوف من التعقيدات السياسية الخطرة التي قد تقلب الوضع الحاضر » .

إن السلطان عبد الحميد الثاني الذي استعمل منتهى الشدة في إخماد الثورة في بلغاريا، أثار سخط الدول الأوروبية عليه . فأعلنت روسيا في تشرين الثاني عام ١٨٧٦ أنها سوف تتدخل لتضع حداً لتصرف رجال السلطان ضد سكان البلقان المسيحيين . هذا الاعلان جعل بريطانيا ـ حفاظاً على سلامة الامبراطورية العثمانية ـ، تدعو إلى عقد مؤتمر أوروبي في القسطنطينية للضغط على السلطان من أجل الإسراع في إجراء إصلاحات ضرورية في أراضي الإمبراطورية وخاصة في البلقان .

وكانت بريطانيا ترغب من وراء الدعوة لعقد المؤتمر ، منع روسيا من الذهاب إلى الحرب خوفاً من انحلال الامبراطورية العثمانية . فعقد المؤتمر في ٢٣ كانون الأول بحضور روسيا ـ النمسا ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ إيطاليا . وفي أثناء انعقاد المؤتمر أصد السلطان عبد الحميد دستوراً جديداً منح بموجبه رعاياه الحرية والمساواة بدون تمييز بين المسلمين والمسيحيين . كما وأنه أقر إقامة مجلس تمثيلي في بلاد

البلقـان حيث يمكن للشعـوب المسيحيـة أن تعـرض فيـه طلبـاتهـا . ولكن في الواقع أن السلطان عبـد الحميد لم يكن يـرغب في الإصلاح السياسي ، فظهـر الخلاف بينـه وبين رجـال الإصلاح (جمعيـة تركيـا الفتـاة) حول المسـائل الـلازمة لتنفيـذ الدستـور الجديـد . واستطاع السلطان أن يتهرب من تنفيذ الدستور بعد أن رفضت بريـطانيا توجيه تهديد أوروبي مشترك ضده . فعزل مدحت باشا الزعيم الأكبر لحزب الإصلاح وأيد الدستور في ٥ شباط ١٨٧٧ . كما وأنـه في الشهر التـالي ، عـطل الـدستـور ممـا أدى بـالـدول الأوروبية إلى الاجتماع ثـانية في لنـدن وأصدروا في ٣١ آذار بروتوكول لندن ؛ فطالبوا بموجبه السلطان بعـدة مطالب تتعلق بمعاملة رعاياه المسيحيين وتحسين وضعهم .

السلطان رفض الاعتراف ببروتوكول لندن كما وأنه رفض الاقتراحات التي وضعها السفراء قبلاً في مؤتمر القسطنطينية ، مما جعل القيصر الروسي يعمل منفرداً بعد أن تعذر الـوصول إلى عمل أوروبي موحـد ـ فأعلن الحـرب على تركيـا في ٢٤ نيسان . ولم يعلن القيصر الحرب على تركيـا إلا بعد أن اتفق مع الامبراطورية النمسـوية ـ المجـرية . فقـد عقدت معـاهدة سرية بين الدولتين في ١٥ كانون الثاني ١٨٧٧ بعد فشل مؤتمر القسطنطينية ، ونصت المعاهدة على ما يلي :

١ ـ تقف النمسا على الحياد . على أن تهب لمساعدة روسيـا إذا اقتضت الظروف ذلك . كما وأنها سوف تبذل مساعيها

لإبعاد إشتراك دولة ثالثة في الحرب (تعني بريطانيا) .

٢ ـ تعهدت روسيا بعدم احتلال بلاد الصرب .

٣ ـ تتغاضى روسيا عن احتلال النمسا للبوسنة والهرسك في نهاية الحرب .

بدأت الجيوش الروسية بالتقدم في الأراضي التركية وانضمت رومانيا وصربيا والجبل الأسود إلى جانب روسيا ولم تمنع بريطانيا روسيا من التوغل في الأراضي التركية بسبب تأكيدات القيصر الروسي الإسكندر الثاني لبريطانيا بأن الجيش الروسي لن يحتل القسطنطينية . لقد جاءت تأكيدات القيصر بعد إرسال مذكرة إلى الحكومة الروسية في ٦ أيار جاء فيها أن الحكومة البريطانية لا يسعها أن تقف مكتوفة اليدين إذا وقعت القسطنطينية في يد غير الدولة العثمانية . وفي نهاية عام ١٨٧٧ كانت القوات الروسية تتقدم نحو القسطنطينية خلافاً لتأكيدات القيصر ، مما جعل الحكومة البريطانية تسارع للتدخل لمنع روسيا من السيطرة على المضايق . وكان دزرائيلي ـ رئيس الحكومة البريطانية ـ على استعداد للذهاب إلى الحرب حتى يمنع الكارثة التي تقف بريطانيا دائماً دون حدوثها . فأمر الأسطول البريطاني بالتوجه إلى بحر مرمرة . وأرسل وزير الخارجية اللورد سالزبوري مذكرة إلى الحكومة الروسية يعلمها فيها أن بريطانيا لن تسمح باحتلال المضائق من قبل أية دولة .

وطلب اندراسي رئيس وزراء النمسا في ١٥ كانون الثاني

١٨٧٨ من روسيا بأن لا تضع أوروبا تحت الأمر الواقع ، أي لا تفرض شروط الصلح ضد تركيا قبل استشارة الدول الأوروبية .

خوفاً من التهديدات البريطانية أمر القيصر قادته بعدم دخول القسطنطينية وتوقف الزحف في مدينة سان استيفانو ـ وهي على مقربة من العاصمة التركية ـ وطلب من سفيره في القسطنطينية بإجراء مفاوضات مع السلطان . وفي ٣ آذار عام ١٨٧٨ وقعت معاهدة سان استيفانو San Stéfano التي نصت على ما يلي :

١ ـ حصلت روسيا في الجزء الآسيوي على مدينة قرش في الأناضول . وباطوم على البحر الأسود وعلى بايزيد . وفي الجزء الأوروبي حصلت على دو برجيه .

٢ ـ تنازلت روسيا عن دوبرجيه لرومانيا مقابل أن تحصل روسيا على بساربيا الجنوبية .

٣ ـ منح بلغاريا حدوداً أوسع . فقد أصبحت دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً تمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه بحيث تضم معظم مقدونية ويحق لروسيا الاحتفاظ بحاميات عسكرية لمدة سنتين .

٤ ـ منح بلاد الصرب ورومانيا والجبل الأسود استقلالاً تاماً .

لقد فرضت روسيا معاهدة سان استيفانو على تركيا معاهدة بين القوي الذي أملى شروطه على الضعيف. مما أدى

إلى ظهور معارضة أوروبية وخاصة من قبل بريطانيا والنمسا ، وبذلك تكون روسيا قد وضعت أوروبا أمام الأمر الواقع . بريطانيا رأت أن إقامة دولة بلغاريا الكبرى تمتد من بحر الأسود إلى بحر إيجه بتأييد من روسيا ، ما هو إلا امتداد للنفوذ الروسي ليصل إلى قلب القسطنطينية والسيطرة على المضايق كما وأن بريطانيا رأت أن التوسع الروسي في قرش وباطوم وبايزيد يهدد طرق المواصلات البريطانية عبر العراق .

أما النمسا فإنها عارضت معاهدة سان استيفانو ، لأنها لم تحصل على البوسنة والهرسك كما وعدها القيصر على أثر توقيع المعاهدة السرية في ١٥ كانون الثاني ١٨٧٧ . إذن في هذا الجو الدولي المتأزم وخوفاً من حرب بين بريطانيا وروسيا ، أخذ بسمارك زمام المبادرة واقترح عقد مؤتمر دولي في برلين للنظر في تعديل شروط معاهدة سان استيفانو . ووافق القيصر على اقتراح بسمارك لأنه أيقن بأن الدول الأوروبية لن ترضى بمعاهدة سان استيفانو . كما وأنه لم يكن على استعداد لأن يجازف بحرب ضد بريطانيا والنمسا .

قبل انعقاد مؤتمر برلين في ١٣ حزيران ١٨٧٨ ، سعى القيصر بالطرق الدبلوماسية من أجل إرضاء بريطانيا على حساب الامبراطورية العثمانية فاقترح عليها احتلال مصر لقاء تسوية الأوضاع في البلقان بما يتلاءم ومصلحته . ولكن الحكومة البريطانية رفضت المساومة لأنها كانت لا تريد أن يصل

النفـوذ الروسي إلى الميـاه الدافئـة ، ممـا يشكـل خـطراً على خطوط مواصلاتها في البحر الأبيض المتوسط ، وسـارعت إلى تعزيز وجودها العسكري في المنطقة مما جعل الحكومة الروسية تطلب من سفيرها في لندن الاتفاق مع الحكومة البريطانية على ما يلي :

١ ـ عدم امتداد حدود الدولة البلغاريـة إلى بحر إيجـه . وهذا يعني إبعـاد النفـوذ الـروسي عن ميـاه البحـر الأبيض المتوسط .

٢ ـ تعهدت روسيا بإعادة بايزيد إلى السلطان خوفـاً من امتداد روسي إلى أراضي العراق .

بعد أن تمت المفاوضات الجانبية بين روسيا وبـريطانيـا أمكن عقد مؤتمر برلين في ١٣ حزيـران . وكان عقـد المؤتمر في برلين فرصة لبسمارك لكي يلعب دوراً أساسياً لإنقاذ السلام الأوروبي . لقـد كان يعمـل من أجـل المحـافـظة على حسن العلاقات بين المؤتمرين وفي التوفيق بين وجهات النظر . علماً أنه كان يؤيد السياسة البريـطانية التي كـانت ترمي إلى تضييق الخناق على روسيا .

لقد انتهى مؤتمر برلين بتعديل معاهدة سان استيفانو على الشكل الآتي :

١ ـ توضع البوسنة والهرسك تحت حماية النمسا .
٢ ـ أما دولة بلغاريا الكبرى فقد تقلصت مساحتها فأعيد قسم منها إلى تركيا وما تبقى أصبح إمارة بلغارية تتمتع بالحكم الذاتي .

٣ ـ تعيد روسيا بايزيد إلى السلطان العثماني .

هذا التعديل جرى على معاهدة سان استيفانو لصالح الأمبراطورية العثمانية ولبريطانيا ؛ فدزرائيلي ، رئيس الوزراء البريطاني لعب دوراً رئيسياً في هذا المؤتمر ، فاستطاع تقليص مساحة الدولة البلغارية الكبرى حتى يبعد النفوذ الروسي عن المياه الدافئة ، واستطاع أن يعقد اتفاقية سرية في ٤ حزيران ١٨٧٨ مع السلطان العثماني ، نصت على منح بريطانيا جزيرة قبرص مقابل أن تدافع بريطانيا عن الأراضي العثمانية إذا حاولت روسيا التوسع في الأناضول . واحتلال قبرص ما هو إلاّ مقدمة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس نظراً لارتباط مصالح بريطانيا التجارية بها . إن افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ كان أحد العوامل الرئيسية التي دفعت بريطانيا لاحتلال قبرص كقاعدة قريبة من قناة السويس .

وصف القيصر الروسي مؤتمر برلين بأنه تحالف أوروبي ضده بزعامة بسمارك . لقد خسر القيصر الكثير من المكاسب التي حققها بموجب معاهدة سان استيفانو وألقى مسؤولية تلك الخسارة على عاتق بسمارك ، ومن هنا بدأ انفراط حلف

الأباطرة الثلاثة . ومن أجل الانتقام من بسمارك فكر القيصر بالتفاهم مع فرنسا التي تبحث عن حليف .

أما فرنسا فبعد أن عرفت بالاتفاقية السرية الموقعة مع بريطانيا والسلطان بشأن قبرص ، احتجت على ذلك وطالبت بالتعويض . فوافقت بريطانيا على احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ حتى تحتل هي مصر في العام التالي . كما وأن بسمارك بدوره شجع الفرنسيين على احتلال تونس لعل ذلك ينسي الشعب الفرنسي مرارة الهزيمة في سدان وسلخ الألزاس واللورين عن فرنسا وضمهما إلى ألمانيا . كما وأنه كان يعتقد بأن احتلال تونس سوف يثير الخلاف مع إيطاليا ، فتبقى فرنسا في عزلة .

وأخيراً لا نستطيع أن نقول أن مؤتمر برلين أوجد تسوية دائمة للمسألة الشرقية . فالولايات البلقانية لم تكن راضية عن التسوية . فرومانيا سلخت منها بسارابيا لصالح روسيا مع العلم أنها ساعدت روسيا في الحرب . كما وأن صربيا لم تكن راضية عن ضم البوسنة والهرسك، إلى الامبراطورية النمسوية لأنها كانت تطمع في ضمهما إليها . كما وأن بلغاريا لم تكن راضية عن التسوية لأنها قلصت حدودها التي رسمتها معاهدة سان استيفانو .

التسابق الاستعماري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥

أدى تزايد المعرفة لدى الدول الاستعمارية بالبلاد المستضعفة أو المتخلفة إلى زيادة حدة الاستعمار الأوروبي وانطلاقه في مناطق كانت مجهولة من قبل .

وإلى جانب زيادة المعرفة بالبلدان المتخلفة ، ونمو الدعوات إلى تنشيط العمل الأوروبي في إفريقيا باسم « رسالة الرجل الأبيض » أو باسم « مقاومة تجارة الرقيق » ، التقط رجال السياسة الأوروبية ومجلس الشركات الكبرى الأوروبية هاتين الفكرتين واستخدمتهما ـ بالتعاون مع الدول الأوروبية نفسها ومع دعاة هذين المبدأين الرائعين ـ في السيطرة على الكثير جداً من البلاد الإفريقية سيطرة استعمارية استغلالية قاسية .

هذا ما جعل النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة نمو التحركات الاستعمارية الأوروبية ؛ إن السكان في أوروبا كانوا يتزايدون بسرعة أكثر بسبب الأساليب الصحية التي منعت الأوبئة الكبرى من التردد على القارة الأوروبية ، فضلاً عن أن ارتفاع مستوى المعيشة والتعليم في أوروبا خفض من نسبة الوفيات ، في نفس الوقت الذي قلل فيها الانقلاب الصناعي من الحاجة إلى الأيدي العاملة وزاد من عدد الخارجين عن القانون لأسباب سياسية أو اجتماعية . فوجدت بعض الدول

ـ مثل إنجلترا ـ في التوسع الاستعماري في أستراليا ونيوزيلندة ومثل روسيا في التوسع الاستعماري في سيبيريا فرصة للتخلص من هؤلاء الخارجين عن القانون بإرسالهم إلى تلك المستعمرات .

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت بريطانيا مطمئنة إلى أن مستعمراتها بعيدة عن متناول الدول الطامعة أو الحاقدة طالما هي مسيطرة على مفاتيح البحار الدولية .

وكانت بريطانيا مكروهة من الحكومات الأوروبية بسبب ما انفرد به الإنجليز من مستعمرات شاسعة . وكان الإنجليز قد ضمنوا نوعاً من الطمأنينة من ناحية ابتعاد الخطر الأوروبي عن مستعمراتها وذلك بعد هزيمة روسيا في حرب القرم (١٨٥٦) وهزيمة فرنسا أمام بروسيا في ١٨٧١ . كما نجح الإنجليز في وقف التقدم الروسي صوب الهند . وأدى هذا إلى أن يجد الروس أن الطريق الباقي للتوسع الاستعماري هو الزحف شرقاً نحو منشوريا وكوريا . فكان أن اتسعت روسيا نتيجة لذلك اتساعاً ضخماً في تلك المسافات الممتدة حتى الصين ، كما سيطرت على مسلمي القوقاز وتركستان .

وفي إفريقية ، كانت بريطانيا قد وضعت أقدامها بقوة في بعض المراكز في إفريقية (مثل الكاب منذ عام ١٨٠٠ وغانا عام ١٨٧٤) ومنذ ذلك الوقت واجهت تنافساً حامياً من جانب

فرنسا وكذلك من جانب الدولتين الأوروبيتين الجديدتين : إيطاليا وألمانيا . وكان التنافس حاداً للغاية بين هذه الدول ، واستخدمت كل وسائل الخداع والغش والدسيسة لتحقيق الأهداف الاستعمارية . فقد كان لفرنسا وإيطاليا نفوذ متقارب في تونس . وكل منهما تريد الانفراد بها ، ونجحت فرنسا في أن تخدع إيطاليا وتنفرد بتونس (١٨٨١) ونفس الشيء تقريباً فعله الإنجليز بالفرنسيين في مصر ، وسعى الألمان في الثمانينات إلى المشاركة في الاستعمار ، بعد أن أصبحت في أيديهم قوة عسكرية كبيرة ورؤوس أموال ضخمة ، توفرت بعد توحيد ألمانيا ، فانطلق الألمان إلى الأماكن الأفريقية التي لم تكن قد استعمرت بعد، وبسرعة خارقة استطاع بسمارك ابتداء من ١٨٨٤ فرض حمايته الاستعمارية على مناطق شاسعة في أفريقية .

والحق ، أنه منذ ١٨٨٤ أصبحت لبسمارك ، وللحكومة الألمانية من بعده كلمة رئيسية في توزيع أفريقية بين الدول الأوروبية وتجلى ذلك في الظروف التي أدت إلى عقد مؤتمر برلين ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ . وتجنباً للتعقيدات الدولية التي قد تنشأ عن ترك الأمور هكذا بين الدول الأوروبية تتنافس بشكل يعرضها لمخاطر كبيرة اقترح بسمارك عقد مؤتمر دولي في برلين بشأن الكونغو بصفة خاصة وافريقية بصفة عامة . لماذا كانت الدعوة من جانب بسمارك بالذات ، مع أن الأمبراطورية الألمانية لم يكن لها في الكونغو مصالح واضحة وإن كان لها مطالب وإدعاءات في توغولاند ؟

الـواقع ، أن الأمبـراطوريـة الألمانيـة أدركت ـ على يد مستشارها بسمارك ـ أنه لا بد من إرضاء التطلعات الاستعمارية لـدى البرجـوازية الألمـانية النـامية ، وإلى جـانب هـذه وجـد بسمارك أن الـوقت قد ألح على ألمانيا كي تشارك في التسابق الاستعمـــاري منعـــاً لاحتكـــار الـــدول الأوروبيـــة الأخـــرى للامبراطوريات الاستعمارية وحتى يصبـح الباب مفتـوحاً أمـام الدول الأخرى الراغبة في استعمار أجزاء من افريقية . وحيث أن بسمـارك كان يـرى أن استعمار إفـريقية يجب أن يتم دون صدام مسلح بين الدول الأوروبية وإنما يجب أن يتم في مؤتمر دولي ، كانت الدول الأوروبيـة الأخرى مقتنعـة إلى حد كبيـر بجدوى مثل هذا الأسلوب الدولي . نجحت فكرة الدعوة إلى عقد المؤتمر في برلين واستمر انعقـاده من نوفمبـر ١٨٨٤ إلى فبراير ١٨٨٥ .

حضر المؤتمر منـدوبو انجلتـرا وفرنسـا وألمانيـا وروسيا والدولة العثمانية وبلجيكا وهولندة والنرويج والسويـد واسبانيـا والبرتغال ، وانتهى بتوقيع ميثاق ينص فيما ينص على :

١ ـ حياد إقليم حوض الكونغو وحرية التجارة فيه .
٢ ـ حرية الملاحة في حوض الكونغو والنيجر .
٣ ـ إلغاء تجارة الرقيق والقائمين عليها .
٤ ـ ضرورة قيام أية دولة أوروبية تريـد استعمار أرض أفـريقية بإخطار الدول الأخرى بـالأراضي التي تضع يـدها عليهـا

وعند إعلان أية دولة أوروبية حمايتها على أرض إفريقية فيجب أن يلازم ذلك وجود احتلال فعلي لتلك الأراضي وليس مجرد ادعاء بالحماية .

مهدت هذه القرارات لإعلان بلجيكا ظهور (الكونغو الحرة) تمهيداً لكي تحتكر هي استعمارها ، ولقيام ألمانيا بنشاط استعماري واسع النطاق في افريقية جعلها منذ ١٨٨٤ سيدة مناطق شاسعة للغاية في افريقية تشمل :

١ ـ توغولاند .
٢ ـ الكامرون .
٣ ـ جنوب غرب افريقية .
٤ ـ تنجانيقا .
٥ ـ واستبدلت منطقة (ويتو) في شرق افريقية بجزيرة (هليجولاند) ذات الموقع الاستراتيجي الهام جداً بالنسبة للدفاع البحري عن ألمانيا .

ويلاحظ كذلك اشتداد حرب الشركات منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر ، إذ سارعت الدول الكبرى الأوروبية ـ المعنية باستعمار افريقية ـ ، إلى تكوين هذه الشركات للسيطرة على أجزاء من أرضها وسواحلها وداخلها مستندة إلى المعاهدات التي كانت تعقد مع رؤساء القبائل . كما سارعت إلى رفع الأعلام الخاصة بها على أية أرض يمكن السيطرة عليها ، الأمر الذي ضاعف من سرعة تمزيق افريقية واقتسامها بين الدول الاستعمارية الأوروبية .

الفصل السادس

سياسة بسمارك الداخلية

استمر بسمارك يقبض على زمام السلطة ، وبوجه دفة شؤون بلاده ويؤثر في مصاير العالم ، مدة تسعة عشر عاماً بعد تأسيس الأمبراطورية الألمانية . وطابت نفسه بعد الأعمال الجليلة التي أنجزها إلى حصر جهوده في وقاية ألمانيا من التقلبات الداخلية والحروب الخارجية . فلم يكن له مطمع في تأسيس امبراطورية استعمارية ، أو التوسع في الشرق . وكان من بين القواعد الأساسية لسياسته ، ألا يعرض صداقة إنجلترا لبلاده للخطر ، بتحدي سيطرتها على البحار . فقد كان مرهف الإدراك بالمعاثر والأخطار التي يطويها الموقف السياسي في القارة الأوروبية بين دفتيه ، فلم يتردد أن يخاطر بمغامرات جديدة . فقد أبصر أن فرنسا لا تنزع إلى المصالحة ، وروسيا لا يمكن الركون إلى صداقتها ، والنمسا ما زالت تحس بسخط على برلين ؛ فاضطر بسمارك إلى أن يركز مواهبه الدبلوماسية كلها إلى هاتين المعضلتين وهما : كيف يكون على ود وصداقة مع روسيا من غير إغضاب إنكلترا ومع النمسا من غير ابتعاد روسيا عنه ؟

وكان عزل فرنسا ، والسيطرة على أوروبا بواسطة جيش ألماني قوي والمحافظة على نظام حكمه الأوتوقراطي ، المبادىء الهادية لسياسته . وقد ساعدته على النجاح عدة صدف عجيبة من طول العمر وقصره ، فإن الأمبراطور وليم الأول الذي مات سنة ١٨٨٨ ، كان عمره قد طال إلى زهاء التسعين عاماً . وحينما اعتلى ابنه فريدريك العرش ، كان السرطان يهدد حياته . فشلت يداه خلال حكمه الذي دام تسعين يوماً فقط ، عن أن يؤثر في مجرى الأمور . وبموت هذا العاهل الحر النزعة هذه الميتة المفجعة ، أزيحت أعظم عقبة في سبيل بسمارك لتنفيذ سياسته .

التغييرات الاقتصادية :

في هذه الأثناء ، أخذ يطل على ألمانيا تغيير في حياتها الاقتصادية شبيه ـ ما عدا في شدة سرعته ـ بذلك التغيير الذي خبرته إنجلترا في ثورتها الصناعية . فقد امتازت عقود السنين التي رافقت الحرب البروسية الفرنسية بتقدم عجيب في الصناعة والتجارة الألمانيتين ، واغتنت فجأة تلك البلاد بعد فاقة . وهرع الأهلون الذين كانت كثرتهم الكبرى تقطن الريف ، إلى المدن في أعداد متزايدة ، حيث توالدوا وتكاثروا ، حتى صارت كفة الألمان الحضريين ترجح رجحاناً ظاهراً كفة الألمان الريفيين .

وأتت لألمانيا الزعامة في أهم فرعين من فروع الصناعة

الجـديدة ، وهمـا : الصنـاعـات الكيمـاويـة ، والصنـاعـات الكهـربائيـة ، كثمرتين طبيعيتين لتفـوق الشعب الألمـاني في شؤون التعليم ، فــزادت الكميـات المستخــرجـة من الفحم الحجري أضعافاً مضاعفـة . ومكنت عملية اختـراع تمت في إنـكلتـرا ، ونـسبـت إلى Thomas و Gilchrist الـعــالمـيـن الإنكليـزيين ، مكنت عمليتهما الألمـان من الانتفاع اقتصـادياً بالحديد الخام المستخرج من مناجم لكسمبـرغ ، واللورين . وقـاد هذا الاختـراع إلى تطورات اقتصـادية واسعـة النـطاق ، فتحولت منطقة الفحم في وستفاليا إلى إقليم ممتاز في نشاطه وتركيز الصناعة فيـه أغنى مقاطعـات إنكلترا الصنـاعية . ففي عقد واحد (وهو العقد التاسع من القـرن الماضي) ضـاعفت الامبراطورية الألمانية إنتاجها من الصلب ، وضاعفت تقريباً ما تخرجه من الحديد .

نمو البحرية الألمانية :

وبينما كانت الصناعة تتقدم على هذا المنوال ، وتبدلت أخلاق الأمة الألمـانية ، وأنـواع حرق أبنـائها ، وجهت عنـاية كبيرة لتنمية البحرية الألمانية . فشـرعت المراكب الألمـانية ، في أعداد سريعـة الزيـادة ، تشق عباب المحيط الإطلنـطي ، وترسو في شـواطىء القارة الإفـريقية والشـرق الأوسط . ففي العشرين سنة التي تخللت سني ١٨٧٠ و ١٨٩٠ ، تضـاعفت حمولة سفن الامبراطورية الألمانية سبعة أمثال ، ورفع الصوت مـطالباً بمستعمـرات ، وبوضـع حمايـة ضد القمـح الأمريكي

والمصنوعات الإنكليزية ، وبنهج سياسة نشطة في كل صقع من أصقاع العالم .

مبدأ حماية التجارة :

وبلغ ضغط الرأي العام في هذه النواحي من الشدة ، بحيث لم يكن في مقدور أي سياسي ، مهما علا مقامه في أعين مواطنيه ، أن يصمد أمامه طويلاً . فأكره بسمارك على التسليم بمطالبه ، فأقر سنة ١٨٧٩ مبدأ حماية الصناعة الألمانية كأساس لسياسته الجمركية ، ثم أسرع بعد ثلاث سنين يوجه ألمانيا في طريق الاستعمار ، محتجاً بأن للضرورة أحكاماً .

ومن الصدف الطريفة التي لاحظها البعض أن تكون الشعبة الاستعمارية في مجلس الديستستاغ حدث في نفس العام (١٨٨٣) الذي شاهد تأسيس شركة الكهرباء الألمانية التي يرمز لها بالحروف A.E.G. ، وهي الاتحاد الكهربائي الضخم الذي أقيم على أساس توطيد أعظم صناعة من الصناعات العالمية الألمانية .

قوانين التأمين :

واجهت ألمانيا بالاشتراك مع كل مملكة أوروبية أخرى خبرة نتائج انتشار الصناعة الحديثة في بلادها ـ واجهت ألمانيا سني السبعين والثمانين من القرن الماضي ألواناً قاتمة من الفاقة غير العادلة ، وشعرت بتخوف من مشهد طبقاتها العمالية

القلقة البائسة المسخرة . في حين كان فاجنر Wagner يشنف فيه آذان محبي الموسيقى في أوروبا بعزف الأوبرات الموسيقية خلال احتفالات بيرويت Bayreuth الموسيقية ، كان عمال المناجم والمصانع الألمانية يتعرضون لمصاعب ، ويتوجسون من مخاوف ، تماثل تلك التي عاناها عمال المصانع الإنكليزية قبل سن قوانين المصانع .

ولكن بسمارك كان سياسياً بارعاً أعظم من أن تعمى عيناه عن رؤية أهمية المسائل الاجتماعية . فرأى بنافذ بصيرته ، أنه إذا كان يروم بقاء بنيان نظمه ومؤسساته سليماً ، فعليه أن يرضي العمال . إذا لم يثق بأن ترك المنافسة الطليقة للأهواء الشخصية غير المكبوحة (سينتج أعظم قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد) ؛ ولهذا ظفرت النظم القائمة على رعاية الدولة للضعفاء من أبنائها ـ هذه النظم التي لم تكن بالبدعة المستحدثة في التقاليد البروسية القديمة ـ، ظفرت هذا النظم بمبرر جديد. وأخذت تطالب بتطبيقها في دائرة واسعة ، تبعاً للظروف المتغيرة الناجمة عن الثورة الصناعية . فطالبت بأن يحمي الشيوخ من العوز ، ويؤمن العمال ضد أخطار المرض والحوادث .

ومع أن بسمارك لم يكن مجسناً كريماً كاللورد شافتسبري ، ومع أنه لم يضع قوانين تضارع القوانين الإنكليزية الخاصة بالمصانع ، إلا أنه كان في مشروعاته

العظيمة للتأمين الإجباري ضد المرضى سنة ١٨٨٣ ، وضد الحوادث سنة ١٨٨٤ ، وضد الشيخوخة سنة ١٨٨٩ ـ كان رائداً مبدعاً ؛ إذ أنه سبق ، فيما خلا عدم إعداده تأميناً ضد البطالة ، تلك المشروعات والقوانين التي نفذت فيما بعد في إنكلترا على يد المستر لويد جورج سنة ١٩١١ .

وتعد قوانين التأمين الألمانية ركناً من أركان التقدم الاجتماعي . فإن من جميع المستنبطات السياسية التي ابتكرت إبان القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك ما هو أثمن وأبقى على نظم المجتمع ، من كشف نظام للتأمين يقوم على إعانات مالية تعطى من خزينة الدولة ، ومن جيبي صاحب العمل والعامل ، وبذلك تحمى الطبقة العاملة من شرور المصادفات السيئة في الحياة الصناعية . والحق أن تجنب إشعال الثورة ردحاً طويلاً من الدهر في ألمانيا، يعود إلى درجة ما ، إلى هذه المشروعات النفيسة ، التي حرم بسمارك بواسطتها الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني ، الذي نما نمواً مطرداً برغم وسائل الاضهاد والقمع التي تعرض لها ـ حرمه بسمارك من دافع قوي ، ودعاية لا ترد لإثارة خواطر الفقراء ، وإذكاء سخط المحرومين .

سياسة القمع :

ولكن بتقدم بسمارك في السن ، غدا أقل تحملاً للمعارضة . فانتهز فرصة محاولتين مختلفتين لاغتيال

الأمبراطور ، ووضع قانوناً ـ جدد ثلاث مرات متتالية ـ ضد الاشتراكيين . وبلغ من صرامة ذلك القانون أنه وضع الحريات الفردية تحت رحمة البوليس . ولهذا فإن حزب الأحرار الوطني ـ الذي كان دعامة الأمبراطورية في أيامها الألمانية الأولى ، والمؤيد للحكومة في كفاحها ضد رجال الدين ـ ، إن هذا الحزب بموافقته على ذلك التشريع المجحف الصارم ، أعلن إفلاسه من المبادىء الحرة الحقيقية .

الفصل السابع

بسمارك وسياسة الأحلاف / نهاية عهده

كما ذكرنا سابقاً إن القيصر الروسي وصف مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ بأنه حلف أوروبي موجه ضده بزعامة بسمارك . مما جعله يلتفت إلى فرنسا للتحالف معها .

أما بسمارك الذي كانت تقوم سياسته على عزل فرنسا ، فبعد أن رأى عصبة الأباطرة الثلاثة لعام ١٨٧٣ قد انفرط عقدها بسبب أزمة البلقان ، سعى مجدداً من أجل توثيق علاقاته مع النمسا وروسيا وإيطاليا ، خوفاً من أن يتم التقارب بين فرنسا وإحدى تلك الدول أو يتم تقارب بين النمسا وروسيا ضد ألمانيا .

أولاً : التحالف الثنائي البروسي النمساوي ١٨٧٩ :

بدأت المفاوضات الدبلوماسية بين النمسا وألمانيا من أجل عقد معاهدة دفاعية هجومية كما كان يرغب بسمارك . ولكن اندراسي وزير خارجية النمسا رفض اقتراح بسمارك بشرط أن تكون المعاهدة دفاعية وذلك خوفاً من أن يجر بسمارك النمسا للحرب ضد فرنسا . واضطر بسمارك للقبول

بالشروط النمساوية . وتم توقيع اتفاق الحلف الثنائي في ٧ تشرين الأول ١٨٧٩ ؛ ونص على ما يلي :

١ ـ إذا تعرضت إحدى الدولتين إلى هجوم روسي ، فعلى الدولة الأخرى تقديم المساعدة لرد العدوان .

٢ ـ إذا نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا ، فإن النمسا تقف على الحياد .

في الواقع لم يكن بسمارك راضياً كل الرضى عن هذا الشرط ، ولكنه رضخ أمام إلحاح اندراسي . هذا الاتفاق ، الذي كان في الواقع موجهاً ضد روسيا أكثر مما هو موجه ضد فرنسا ، جعل الامبراطور البروسي وليم الأول يعارض هذا الاتفاق لأنه كان يعتقد بأن النمسا لا يمكن أن تكون قد نسيت حرب ١٨٦٦ وبالتالي لا يمكن أن تكون حليفاً مخلصاً . بل كان يرغب في المحافظة على روسيا التي لم يظهر له فيها اتجاهات عدائية . فكتب لبسمارك في ١٠ أيلول : « إنني لا أصرح لك بعقد اتفاقية أو تحالف مع النمسا والمجر » . ومع ذلك وأمام تهديد بسمارك بالاستقالة تراجع الأمبراطور البروسي عن موقفه ووافق على الاتفاق بشرط أن لا يذكر اسم روسيا في الاتفاقية . ولكن اندراسي الذي لا يريد أن يكون الحلف موجهاً ضد فرنسا رفض شروط الامبراطور البروسي .

ولكن بسمارك الذي كان يرغب بإتمام الصفقة حتى ولو كانت غير كاملة اضطر للرضوخ لمطالب النمسا ووقع الاتفاقية

بالرغم من تعليمات الأمبراطور البروسي بعدم التوقيع ، وأمام تهديد بسمارك بالاستقالة مرة ثانية اضطر الأمبراطور أن يـوافق على الاتفاقية وصرح بأن أولئك الذين يجبروني على هذا القرار سيتحملون نتائجه في الآخرة .

وفي الواقع ، إن الاتفاق الثنائي هو لمصلحة النمسا أكثر مما هو لمصلحة بروسيا . فالنمسا التي حصلت على البوسنة والهرسك بمـوجب معاهـدة برلين ١٨٧٨ ، كـانت تخشى من الأطماع الروسية في البلقان . فجاءت الإتفاقية فرصة مناسبة للنمسا من أجل الحد من الأطماع التوسعية الروسية ، وذلـك بعد أن ضمنت وقوف بروسيا بجانبها إذا حاولت روسيا التعدي على النمسـا . أما بـروسيا فقـد ضمنت جانب النمسـا بعـدم تحالفها مع فرنسا ووقوفها على الحياد إذا اندلعت الحرب مع فرنسا . وهذا ما كـان يرمي إليـه بسمارك ، أي جعـل فرنسـا معزولة عن الحلفاء الأوروبيين . كما وأن هدفه الآخر هو جعل روسيا تشعر بدورها بـأنها معـزولة بشكـل خطيـر مما يجعلهـا تسارع لإعادة العمل باتفاق الأباطرة القديم .

ثـانيـاً : إتفـاق الأبـاطـرة الثـلاثــة : البـروسي - الــروسي - النمساوي ١٨٨١ :

كـان بسمارك يعـرف كيف يفيد من اختـلاف المصالـح لكي يحتفظ بالتفوق القاري الذي حصلت عليه ألمانيا . وعمل على بناء نظام يسيطر على تفكير الحكومات والشعوب لتدعيم

تفوق ألمانيـا على القارة ، ولمنـع إمكانيـة نشوب حـرب بين روسيا والنمسا والمجر بشأن البلقان .

ومن أجل تضييق الخناق على فـرنسا وعـزلها ، حـاول بسمارك ـ بالـرغم من توقيـع التحالف الثنـائي والذي هـو في الظاهر ضد روسيا كما قال الأمبـراطور البـروسي وليم الأول ـ تحسين العـلاقات مـع القيصر الـروسي وعقد تحـالف معه . فاستغل الصراع الإنكليزي الروسي في أفغانستـان ، ليتظاهـر أمام القيصر الروسي بأنه ينوي إجراء مفاوضـات مع بـريطانيـا والتحالف معها ضده . فكلف سفيره في لنـدن بالـوقوف على نيات بريطانيا في حالة الحرب مع روسيا . وكان بسمارك على يقين بأن هذه المحادثات مع لندن ستثيـر قلق روسيا . وفعـلاً سارعت الحكومة الروسية وأرسلت الدبلوماسي سابورروف إلى برلين في ٢٩ أيلول ١٨٨٠ . وقال بسمارك بأنه كان على يقين بأن القيصر سوف يسارع إلى برلين بمجردِ الإتفاق مع النمسا .

وخوفاً من تقارب بروسي ـ بريطاني ، وخوفاً من الاتفاق الثنائي البروسي ـ النمساوي الموجه ضده ، وجد القيصر نفسه في موقف حرج ، فأقبل مسرعاً نحو بروسيـا ليتحالف معهـا ، ولكن القـدر كان قـد سبقه ، فقتـل سنـة ١٨٨١ . وقـد نص الاتفاق على ما يلي :

١ ـ إذا دخلت إحدى الدول الثلاث في حرب مع دولة رابعة ، فعلى الدولتين الأخريين أن تقفا على الحياد .

وهكذا استطاع بسمارك عزل فرنسا . فإذا نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا فإن بسمارك أمن جانب روسيا والنمسا بوقوفهما على الحياد . كما وأن النمسا أيضاً أمنت جانب ألمانيا وروسيا إذا اندلعت الحرب بينها وبين إيطاليا .

أما روسيا فقد استطاعت التفرغ للقضية المستحكمة بينها وبين بريطانيا ونعني به التوسع الاستعماري في أفغانستان وآسيا .

٢ ـ بالنسبة للصراع الروسي النمساوي في البلقان فقد تم الاتفاق على وجوب التشاور والتفاهم لتحديد المصالح إذا طرأ أي تغيير على أوضاع الأمبراطورية العثمانية .

كان بسمارك يريد إقامة علاقات حسنة بين روسيا والنمسا بخصوص البلقان وكان يتمنى لو يعقد إتفاق بين الدولتين لتحديد مناطق نفوذ على دولة لإنهاء النزاع فتصبح صربيا منطقة نفوذ نمساوية على أن تكون بلغاريا منطقة نفوذ روسية . ولكن أطماع كل من القيصر والأمبراطور النمساوي لم تكن تسمح لإنهاء الصراع كما كان يرغب بسمارك .

٣ ـ مدة المعاهدة ثلاث سنوات . لقد تجددت مرة أخرى عام ١٨٨٤ . في الواقع إن النمسا حاولت عرقلة التفاهم الألماني الروسي لأنها سوف تكون هي المتضررة من العودة إلى اتفاق الأباطرة الثلاثة ، ما دامت قد حصلت على اتفاقية مع ألمانيا موجهة ضد روسيا . ولكن بسمارك

هدد الحكومة النمساوية بأنها ستتحمل مسؤولية عملها إذا رفضت الاتفاق مع روسيا . هذا التهديد أجبر هيمرليه Haymerle الذي حلَّ محل اندراسي في وزارة الخارجية النمساوية للرضوخ لمطالب بسمارك الذي اقتنع بالتحالف مع النمسا وروسيا من أجل إحكام الطوق على فرنسا ولم يكن يفكر بضم إيطاليا إلى سياسته التحالفية . وقال :

« لسنا في حاجة إلى أن نجري وراء إيطاليا فإنها دولة لا تحتفظ بوعودها عندما تتعارض مع مصالحها . والسياسة الإيطالية ذات الطابع المضطرب المتعجرف قد تسبب المتاعب لأصدقائها » .

ثالثاً ـ التحالف الثلاثي : البروسي ـ النمساوي ـ الإيطالي ١٨٨٢ :

في البداية لم يكن بسمارك راغباً في التحالف مع إيطاليا لأنه كان لا يثق بالنظام السياسي للمملكة الإيطالية ، لأنه نظام برلماني ديموقراطي وبالتالي لا يستطيع أن يوافق على معاهدات سرية . ولكن من جهة ثانية كان بسمارك بوسعه الاعتماد على إيطاليا في حال قيام حرب مع فرنسا لأنها ستجبر فرنسا على حشد جيوشها في جبهة الألب بالإضافة إلى الجبهة الألمانية . لذلك عندما سعت إيطاليا إلى التحالف معه عام ١٨٨٢ ، لم يرفض ذلك ، ولكنه طلب من إيطاليا أولاً إنهاء مشاكلها مع النمسا لأنه يريد أن يحرر النمسا من المتاعب التي

تسببها حركة تحرير إيطاليا . لقد كانت العلاقات الإيطالية النمساوية على ما يرام منذ حروب تحرير إيطاليا وتوحيدها ، وكانت إيطاليا ما زالت تطالب بتريستا وترانتان . وبالفعل قبلت إيطاليا نصيحة بسمارك للتفاهم مع النمسا أولاً . فزار الملك الإيطالي فيينا حيث بدأت المفاوضات التي انتهت بتوقيع معاهدة باردو التي سوت المشاكل العالقة بين البلدين . وبعد ذلك وافق بسمارك على توقيع معاهدة التحالف الثلاثي في ٢٠ أيار ١٨٨٢ . لقد نصت المعاهدة على ما يلي :

١ ـ تساعد على دولة حليفتها إذا تعرضت لاعتداء من قبل دولة أخرى .

٢ ـ تلتزم كل دولة الحياد إذا اضطرت إحدى الدول الثلاث إلى شن حرب هجومية على دولة أخرى .

٣ ـ تلتزم ألمانيا والنمسا بمساعدة إيطاليا إذا تعرضت لاعتداء من قبل فرنسا .

٤ ـ تلتزم إيطاليا والنمسا بمساعدة ألمانيا إذا تعرضت لاعتداء من قبل فرنسا . أما النمسا فإنها تساعد ألمانيا إذا تعرضت لاعتداء من قبل دولتين أو أكثر .

٥ ـ مدة المعاهدة خمس سنوات .

إذن فاز بسمارك بمحالفة إيطاليا وزاد من عزلة فرنسا كما وإن إيطاليا خرجت رابحة بعد أن ضمنت تأييد ألمانيا إذا اعتدت عليها فرنسا . كما وأن النمسا استفادت من المعاهدة

بعد أن ضمنت إيطاليا ، وبالتالي فإنها إذا اضطرت لمحاربة روسيا في البلقان ، فتستطيع عندئذٍ أن توجه جيوشها إلى جبهة واحدة . ولكن إذا كانت المساواة المتبادلة هي التي سادت الاتفاقات المعقودة بين إيطاليا وألمانيا ، فإن الأمر لم يكن كذلك بين النمسا وإيطاليا . ففي الوقت الذي التزمت فيه النمسا بمساعدة إيطاليا في حال الهجوم الفرنسي ضده ، فإن إيطاليا تلتزم بمساعدة النمسا في حال هجوم روسي ضد النمسا بل وافقت على التزام الحياد . وإذا كانت الحكومة الإيطالية قد ضمنت عدم تأييد النمسا للبابا بالنسبة « لأزمة روما » ، فإن إيطاليا اضطرت ولو مؤقتاً للتخلي عن مطالبها في مقاطعة تريستا التي تسكنها شعوب إيطالية .

وكما توقع بسمارك عندما قال إن السياسة الإيطالية ذات الطابع المضطرب المتعجرف قد تسبب المتاعب لأصدقائها ، فإن إيطاليا استغلت المعاهدة الثلاثية من أجل تحقيق أطماعها الاستعمارية التوسعية في طرابلس الغرب .

وهكذا اكتمل عام ١٨٨٢ عقد الأحلاف السرية مع النمسا وروسيا وإيطاليا من جهة وألمانيا من جهة أخرى . وحاول بسمارك أن يتحالف مع بريطانيا ويعقد معها معاهدة سرية على غرار المعاهدات السابقة . ولكن الحكومة البريطانية رفضت توقيع معاهدة سرية حتى تبقى بعيدة عن المحالفات العسكرية طالما أن الخطر لا يهدد أمنها وسلامتها .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية إن النظام البرلماني البريطاني لا يسمح بعقد المعاهدات السرية ؛ بل يجب مصادقة البرلمان على أية معاهدة .

رابعاً ـ التحالف البروسي ـ الروسي ١٨٨٧ :

كان اتفاق الأباطرة الثلاثة حجر الزاوية في سياسة الأحلاف التي اتبعها بسمارك . هذا الاتفاق الذي لم يعد بالإمكان تجديده مرة ثانية عام ١٨٨٧ بسبب الصراع الروسي النمساوي في البلقان . كان بسمارك يحرص أشد الحرص على عدم إثارة القيصر خوفاً من منازلته لباريس ، لأنه كان يخشى إذا تحالفت فرنسا وروسيا واضطر لمحاربتهما فإن الجيش البروسي يكون عندئذٍ يحارب على جبهتين في وقت واحد ، وهذا يؤدي إلى إضعاف الجيش البروسي . لذلك سعى جاهداً من أجل عقد معاهدة سرية جديدة مع القيصر تجدد ما اتفق عليه في حلف الأباطرة الثلاثة . وبالفعل استطاع بسمارك عقد معاهدة سرية جديدة في ١٨ حزيران ١٨٨٧ وهي التي يطلق عليها أحياناً معاهدة إعادة التأمين . وعدت فيها كل من ألمانيا وروسيا الأخرى وعداً متبادلاً بالاحتفاظ بالحياد في حالة نشوب حرب مع دولة عظمى أخرى ؛ ولكن إذا كانت هذه الدول العظمى هي النمسا والمجر أو فرنسا ، فإن الحياد لن يكون إلا في حالة حرب عدوانية ؛ ونتيجة لذلك فإن روسيا ستكون غير مرتبطة بأي تعهد إذا ما هاجمت ألمانيا فرنسا .

في هـذا الوقت بلغ النـظام البسمـاركي أوجـه . ولكن بسمارك وجد باستمرار ، ورغم كل خبرته ، وكل مهارته الفائقة صعوبة أكثر ؛ ازدادت كل يوم لإدارة هذه الآلة التي أصبحت عجـلاتها معقـدة للغايـة . وكان بـالتالي من الصعب على أي شخص غيره أن يتمكن من تسييرها .

نهاية أوروبا البسماركية :

عـام ١٨٨٨ كان الـوضع السيـاسي الألماني كـالتالي : برلمان امبراطوري منتخب حقاً بالانتخاب العام ، ولكنه مدرب على المـوافقـة على ميـزانيـة الجيش بعـد طـول المعـارضـة واللجـاج ، وفيمـا عـدا حفنـة من أعضـائـه الاشتـراكيين المضـطهدين الضئيلي الأهميـة ، كان هـذا البرلمـان ينصـاع لإرادة حكومة لم يكن في مقدوره أن يغيرها ، وبرلمان بروسي منتخب طبق نظام انتخابي أوليغارقي ضيق ـ برلمان لم يكن ذا خطر ، ولم يطرأ عليه تغير منذ نشأته خلال الثورة التي نشبت عام ١٨٥٠ .

وفوق تلك الهيئات جميعاً تطل شخصية بسمارك الجبارة المسيـطرة . في حزيـران ١٨٨٨ خلف وليم الثاني أبـاه على أريكة الحكم ، وقد حرص الأمبراطور الشاب على أن تكون له السلطة العليـا والكلمة النـافذة في ألمـانيا ، فـأعلن : « ليس هناك غير سيد واحد في هـذه المملكة هـو أنا » . ولم يمضِ عامان على تسلمه العرش حتى دب الخـلاف بين الأمبراطـور

الجديد وبسمارك العجوز لسببين : الأول حول السياسة الداخلية والثاني حول السياسة الخارجية . بالنسبة للسبب الأول لقد كان بسمارك من أشد أعداء الحركة النقابية والاشتراكية ، ولم يكن مستعداً للتراجع في هذا الميدان بالرغم من أن الأمبراطور وليم كان يريد أن يبدأ عهده بدون صدامات دموية . لذلك أراد اتباع سياسة اللين مع المطالب العمالية خاصة وأن الانتخابات النيابية كانت على الأبواب . بينما بسمارك بقي مصمماً على دخول المعركة الانتخابية تحت شعار محاربة الاشتراكية والنقابات العمالية .

أما بشأن السياسة الخارجية فلم يكن الأمبراطور الجديد يرى صوابية سياسة بسمارك بالتقرب من روسيا . بل أبدى استعداداً للاستماع إلى منتقدي سياسة بسمارك الروسية ، خاصة من قبل جنرالات الجيش وعلى رأسهم رئيس الأركان ؛ فهؤلاء اتهموا بسمارك بأنه موالٍ للقيصر الروسي ، وأن روسيا كانت تستعد لمحاربة ألمانيا ؛ ولكن بسمارك رفض هذا الاتهام ورفض التقارير العسكرية التي تقول بأن روسيا تستعد لمحاربة ألمانيا واعتبرها عديمة القيمة . ولكن رئيس الأركان أطلع الأمبراطور على تلك التقارير السرية التي احتفظ بها بسمارك لنفسه كما أثار غضب الأمبراطور الذي اتهم بسمارك بأنه يتبع سياسة إخفاء الحقائق عنه .

بسبب تلك الخلافات قدم بسمارك استقالته في آذار

١٨٩٠ إلى وليم الثاني . وأعقب ذلك ظهور تحول في السياسة الألمانية تجاه روسيا حيث تم التخلي عن معاهدة الضمانات معها . هذه السياسة الألمانية الجديدة تسببت في توجه جديد للسياسة الخارجية لقيصر روسيا وأدى إلى تكوين التحالف الروسي الفرنسي . وكان أمل فرنسا من ناحية أخرى أن تخرج من العزلة التي فرضها عليها بسمارك . وكانت هذه نقطة تحول خطيرة بالنسبة لتوازن القوى في أوروبا . وأصبح من الممكن أن تواجه ألمانيا خطر حرب على جبهتين ، وتدهورت العلاقات الألمانية الروسية بسرعة .

وهكذا انهار كل ما بناه بسمارك ، وفي أهم نقاطه ، ومع أهم الأجزاء الأساسية في هذا النظام الضخم والمعقد ، ولذلك فإن نهاية أوروبا البسماركية تمثل عهداً جديداً ، وتوازناً جديداً بين القوى على القارة الأوروبية ، ويمكنها أن تعطي مؤثراتها على السياسة الدولية في أوروبا وفي بقية العالم .

بعد أن استقال بسمارك قضى بقية عمره في أملاكه حتى توفي عام ١٨٩٨ عن ثلاثة وثمانين عاماً .

مراجع البحث

١ ـ أحمد الخنساء : تاريخ العلاقات الدولية . من الثورة الفرنسية حتى الحرب الأولى بيروت ١٩٨٦ .

٢ ـ زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق العربي وولادة دولتي سوريا ولبنان . دار النهار ١٩٧١ .

٣ ـ راشد البراوي : العلاقات السياسية والمشكلات الكبرى ـ مكتبة النهضة القاهرة ١٩٧٢ .

٤ ـ بير رنوفان : تاريخ العلاقات الدولية ـ ترجمة جلال يحيى ـ دار القومية القاهرة ١٩٦٤ .

٥ ـ سمعان بطرس فرج الله : العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين مكتبة الأنكلو المصرية القاهرة ١٩٨٠ .

٦ ـ عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ـ دار النهضة بيروت ١٩٧٤ .

٧ ـ عبد العزيز نوار ـ عبد المجيد نعنعي : التاريخ المعاصر ـ أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب الثانية ـ دار النهضة بيروت ١٩٧٣ .

٨ ـ جواهر لال نهرو : لمحات من تاريخ العالم ـ الطبعة الثانية

منشورات المكتب التجاري بيروت ١٩٥٧ .
٩ ـ د . جلال يحيى : أوروبا في العصور الحديثة ـ حتى الحرب العالمية الأولى الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر ١٩٨١ .
١٠ ـ فيشر هـ . أ . ل : تاريخ أوروبا في العصر الحديث ١٧٨٩ ـ ١٩٥٠ تعريب نجيب هاشم ـ وديع الضبع ـ الطبعة السابعة دار المعارف مصر ١٩٥٨ .
١١ ـ محمد بدوي : مدخل إلى علم العلاقات الدولية ـ دار النهضة بيروت ١٩٧٢ .
١٢ ـ عبد الوهاب الكيالي : موسوعة السياسة ـ الجزء الأول ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٥ .
١٣ ـ عادل إسماعيل وأميل خوري : السياسة الدولية في الشرق العربي دار النشر للسياسة والتاريخ بيروت ١٩٦٤ .
١٤ ـ نور الدين حاطوم : الحركات القومية ـ دار الفكر بيروت ١٩٦٩ .
١٥ ـ هانس مورنفتو ـ السياسة بين الأمم ترجمة خيري حماد ـ الدار القومية القاهرة ١٩٦٤ .
١٦ ـ Pierre de la Gorce: Histoire du seconde empire Paris 1908.

فهرس البحث

الفصـل الثالث

الفصـل الرابـع

الفصـل الخـامس

الفصـل السـادس

الفصـل السابـع

سلسلة أحداث ومشاهير عالمية

تتناول هذه السلسلة سير شخصيات عالمية ، من علماء وقادة ، اقترنت أسماؤها بأحداث هامة كان لها أكبر الأثر في مجرى تاريخ البشرية على مرّ العصور .

حمورابي	جورج واشنطن
أخناتون	هتلر
الإسكندر المقدوني	تشرشل
هنيبعل	موسوليني
يوليوس قيصر	رومل
هرقل	مونتغمري
بطرس الأكبر (قيصر روسيا)	ألفرد نوبل
نابوليون بونابرت	إديسون
بسمارك	غاندي
غاريبلدي	جواهر لال نهرو
كريستوف كولومبوس	شارل ديغول
ابراهام لنكولن	أتاتورك